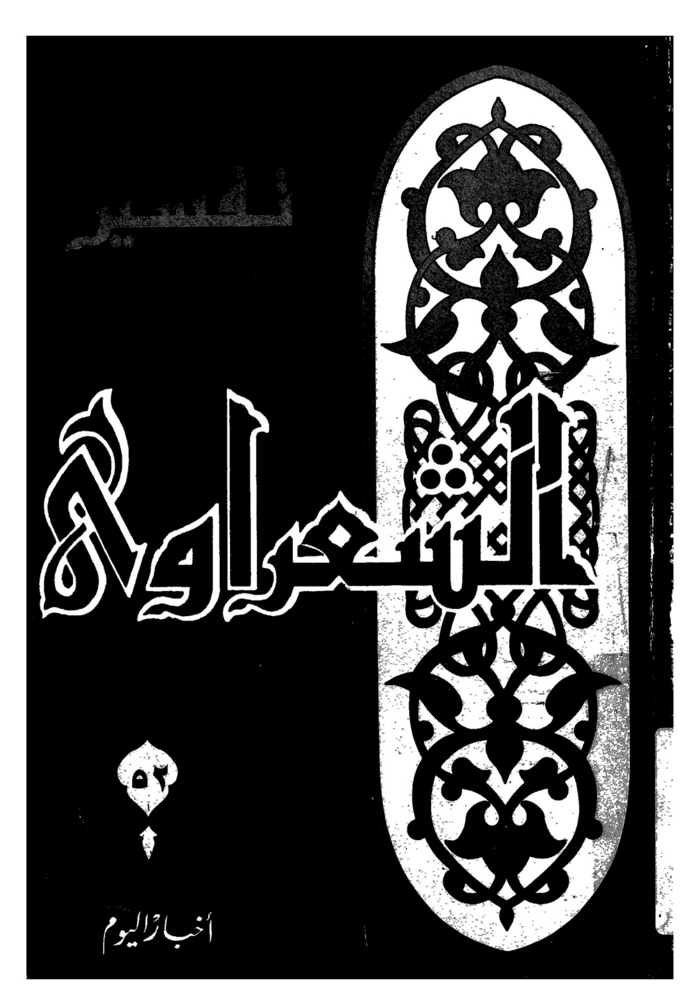

تفسير
الشعراوي
٥٢
أخبار اليوم

كأن المُلْكَ ـ قبل ذلك ـ أي في الدنيا ـ كان للبشر فيه شيء لمباشرتهم الأسباب هذا يملك ، وذلك يملك ، وآخر يوظف ، لكن في الآخرة لا مالك ، ولا مَلِكَ إلا الله ، فإياكم أن تغتروا بالأسباب ، وأنها دانت لكم ، وأنكم استطعتم أن تتحكموا فيها ؛ لأن مرجعكم إلى الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

اذكروا أننا قلنا من قبل : إن الله هدى الكل . . بمعنى أنه قد بلَّغهم بمنهجه عبر موكب الرسل ، وحين يقول سبحانه : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ فالمقصود هنا ليس هداية الدلالة ، لكن دلالة المعونة . وقد فرقنا بين هداية الدلالة وهداية المعونة .

وقوله الحق ﴿ فريقاً هدى ﴾ أي هداية المعونة ؛ لأن هذا الفريق أقبل على الله بإيمان فخفف الله عليه مؤونة الطاعة ، وبغّضه في المعصية ، وأعانه على مهمته . أما الذي تأبى على الله ، ولم يستجب لهداية الدلالة أيعينه الله ؟ لا . إنه يتركه في غيِّه ويخلي بينه وبين الضلالة ، ولو أراده مهديًّا لما استطاع أحد أن يغير من ذلك . وسبحانه منزه عن التجني على أحد من خلقه ، ولكن الذين حق عليهم الضلالة حصل لهم ذلك بسبب ما فعلوا .

﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

إن من يرتكب المعصية ويعترف بمعصيته فهذه تكون معصية ، أمّا من يقول إنها

هداية فهذا تبجح وكفر ؛ لأنه يرد الحكم على الله . وخير للذين يرتكبون المعاصى أن يقولوا : حكم الله صحيح ولكننا لم نقدر على أنفسنا ، أما أن يرد العاصى حكم الله ويقول : إنه الهداية ، فهذا أمره عسير ؛ لأنه ينتقل من مرتبة عاصٍ إلى مرتبة كافر والعياذ بالله .

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

لأنهم يفعلون ما حرم الله ، وليتهم فعلوه على أنه محرّم ، وأنهم لم يقدروا على أنفسهم ، ولكنهم فعلوه وظنوا أن الهداية فى الفعل . وهذا الأمر يشيع فى معاصٍ كثيرة مثل الربا ، فنجد من يقول : إنه حلال ، ونقول : قل هو حرام ولكن لم أقدر على نفسى ، فتدخل فى زمرة المعصية ، ولا تدخل فى زمرة الكفر والعياذ بالله ، ويمكنك أن تستغفر فيغفر لك ربنا ، ويتوب عليك ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إنه حلال !! فهذا هو الخطر ؛ لأنك تبتعد وتخرج عن دائرة المعصية وتتردى وتقع فى الكفر ، اربأ بنفسك عن أن تكون كذلك واعلم أن كل ابن آدم خطاء ، وما شرع الله التوبة لعباده إلا لأنه قدَّر أن عبيده يخطئون ويصيبون ، ومن رحمته أنه شرع التوبة ، ومن رحمته كذلك أنه يقبل هذه التوبة ، فلماذا تخرج من حيز يمكن أن تخرج منه إلى حيز يضيق عليك لا تستطيع أن تخرج منه ؟ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

والزينة إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشىء ، وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

هذا يعنى أن يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس ، وكذلك يمكن أن يكون المقصود بـ ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ هو رد على حالة خاصة وهو أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وأن المراد بالزينة هنا هو ستر العورة . أو المراد بالزينة ما فوق ضروريات الستر ، أو إذا كان المراد بها اللباس الطيب الجميل النظيف ، فنحن نعلم أن المسجد هو مكان اجتماع عباد الله ، وهم متنوعون فى مهمات حياتهم ، وكل مهمة فى الحياة لها زيها ولها هندامها ؛ فالذى يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومن يعمل فى « الحِدَادَة » له زى خاص مناسب للعمل ، ولكن إذا ذهبتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً فى لقاء الله ، أيأتى كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يُضَايق غيره ، فإن كانت ملابس العمل فى مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابس نظيفة حتى لا يُؤذَى أحد بالوجود بجانبك ؛ لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع وهو لقاء الله فى بيت الله ، فلابد أن تحتفى بهذا اللقاء .

﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

والمأكل والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة ، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف ، فقد أحل الله لك الأكثر وحرّم عليك الأقل ، فلا تتجاوز الأكثر الذى أُحلَّ لك إلى ما حرم الله ؛ لأن هذا إسراف على النفس ، بدليل أنه لو لم تجد إلا الميتة ، فهى حلال لك بشرط ألا تُسرف . ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحريم ؛ لأن الله جعل لك فى الحلال ما يغنيك عن الحرام ، فإذا لم يوجد ما يغنيك ، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك ، والمسرفون هم المتجاوزون الحدود . ولا سرف فى حل ، إنما السرف يكون فى الشىء المحرم ، ولذلك جاء فى الأثر :

« لو أنفقت مثل أحد ذهباً فى حِلٍّ ما اعتبرت مسرفاً ، ولو أنفقت درهماً واحداً فى محرم لاعتبرت مسرفاً » .

ولذلك يطلب منك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعطى كل نعمة حقها

بشرط ألا يؤدى بك ذلك إلى البطر ، وحينما ذهب إليه سيدنا عثمان بن مظعون ، وقد أراد أن يترهب ، ويتنسك ، ويسيح فى الكون ، وقال لرسول الله : يا رسول الله ، إننى أردت أن اختصى ؛ أى أن يقطع خصيتيه ؛ كى لا تبقى له غريزة جنسية ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عثمان خصاء أمتى الصوم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى شأن من لم يستطع الزواج : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[١] .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الناس وخوفهم فاجتمع عشرة من الصحابة وهم : أبو بكر وعمر وعلى وابن مسعود وأبو ذر وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد وسلمان وعبدالله بن عمرو بن العاص ومعقل بن مقرن فى بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ويجبّوا مذاكيرهم »[٢] . فكان التوجيه النبوى أن حمد الرسول صلى الله عليه وسلم ربه وأثنى عليه وقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ولكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »[٣] .

ويتابع الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ومادام أخرجها لعباده فهو قد أرادها لهم ، وما ينفع منها للإناث جعلتها السنّة

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) فتح البارى .

(٣) رواه مسلم .

للإناث ، وما يصلح منها للذكور أحلتها السنّة لهم ، وكذلك الطيب من الرزق حلال للمؤمنين والمؤمنات . ولنلحظ دقة الأسلوب هنا فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ثم يتابع سبحانه :

﴿ خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

فكأننا أمام حالتين اثنتين : حالة فى الدنيا ، وأخرى فى يوم القيامة ، معنى ذلك أن الزينة فى الحياة الدنيا غير خالصة ؛ لأن الكفار يشاركونهم فيها ، فهى من عطاء الربوبية ، وعطاء الربوبية للمؤمن وللكافر ، وربما كان الكافر أكثر حظًا فى الدنيا من المؤمن ، ولكن فى الآخرة تكون الزينة خالصة للمؤمنين لا يشاركهم فيها الكافرون .

وكذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعطى اليقظة الإيمانية فى المؤمن بوجود الأغيار فيه ، ومعنى وجود الأغيار أنه قد يتعرض الإنسان لتقلبات بين الصحة والمرض والغنىٰ والفقر والقوة والضعف . وهكذا يكون الإنسان فى الدنيا ؛ فهى دار الأغيار ، ويصيب الإنسان فيها أشياء قد يكرهها ؛ لذلك فالدنيا ليست خالصة النعيم لما فيها من أغيار تأتيك فتسوؤك.إنها تسوؤك عند غيبة شحنة الإيمان منك ؛ لأنك إن استصحبت شحنة الإيمان عند كل حدث أجراه الله عليك لَلَفتَكَ الله إلى حكمته .

﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ويمكن أن نقرأ كلمة « خالصة » منصوبة على أنها حال ، ويمكن أن نقرأها فى قراءة أخرى مرفوعة على أنها خبر بعد خبر ، والمعنى : أنها غير خالصة للمؤمنين فى الدنيا لمشاركة الكفار لهم فيها ، وغير خالصة أيضاً من شوائب الأغيار ولكنها

فى الآخرة خالصة للمؤمنين فلا يشاركهم الكفار ولا تأتى لهم فيها الأغيار .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

معنى « نفصل الآيات » أى لانأتى بالآيات مجملة بل نفصل الآيات لكل مؤمن ، فلا نترك خللاً ، ونأتى فيها بكل ما تتطلبه أقضية الحياة ، بتفصيل يُفهمنا قضايانا فهماً لا لبس فيه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

والحق سبحانه ـ قد بدأ الآية بـ « إنما » التى هى للحصر : أى ما حرم ربى إلا هذه الأشياء ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ، والشرك بالله ، والقول على الله ما لا نعلم ، فلا تدخلوا أشياء أخرى وتجعلوها حراماً ، لأنها لا تدخل فى هذه ، وقول الله فى الآية السابقة : ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ هو على صيغة استفهام لكى يجيبوا هم . ولن يجدوا سبباً لتحريم زينة الله . لأن الحق قد وضح وبيّن ما حرم فقال :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

(سورة الأعراف)

ونتأمل الخمسة المحرمات التى جاءت بالآية ؛ فحين ننظر إلى مقومات حياة الخلافة فى الأرض ليبقى الإنسان خليفة فيها نرى أنه لابد من صيانة أشياء ضرورية لسلامة هذه الخلافة وأداء مهمتها ، وأول شىء أن يسلم للمجتمع طهر أنسابه . وسلامة طهر الأنساب أى الإنجاب والأنسال ضرورية للمجتمع ؛ لأن الإنسان حين يثق أن ابنه هذا منه فهو يحرص عليه لأنه منسوب إليه ، ويرعاه ويربيه . أما إذا تشكك فى هذه المسألة فإنه يهمله ويلفظه ، كذلك يهمله المجتمع ، ولا أحد يربيه ولا يلتفت إليه ولا يعنى به .

إذن فسلامة الأنساب أمر مهم ليكون المجتمع مجتمعاً سليماً ، بحيث لا يوجد فرد من الأفراد إلا وهو محسوب على أبيه ، بحيث يقوم له بكل تبعات حياته ، ولذلك يجب أن تعلموا أن الأطفال المشردين مع وجود آبائهم حدث من أن شكاً طرأ على الأب فى أن هذا ليس ابنه . ولذلك ماتت فيه غريزة الحنان عليه ، فلا يبالى إن رآه أم لم يره ، ولا يبالى أهو فى البيت أم شرد ، لا يبالى أكل أم جاع ، لا يبالى تعرى أم لا .

إذن فطهارة الأنساب ضمان لسلامة المجتمع ؛ لأن المجتمع سيكون بين مربٍّ يقوم على شأن وصغير مربًّى ، المربى قادر على أن يعمل ، والمربَّى صغير يحتاج إلى التربية . ولذلك حرم الله الفواحش.والفحش ـ كما قلنا ـ ما زاد قبحه ، وانتهوا على أنه هو الزنا ؛ لأن أثره لا يتوقف فقط عند الذنب والاستمتاع . بل يتعدى إلى الأنسال . وما تعدى إلى الأنسال فهو تعد إلى المجتمع ، ويصير مجتمعاً مهملاً لا راعى له .

والإثم : أهو كل كبيرة أو ما يقام على فاعله حد ؟ . لقد انتهى العلماء على أن الإثم هو الخمر والميسر ؛ لأن الله قال بالنص :

﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وأراد الحق بذلك أن يضمن مقوم تنظيم حركة الحياة فى الإنسان وهو العقل وأن

الخمر تغيب العقل ، والإنسان مطالب بأن يحفظ عقله ليواجه به أمور الحياة مواجهة تبقى الصالح على صلاحه أو تزيده صلاحاً ولا تتعدى على الإنسان . فإذا ما ستر العقل بالخمر فسد واختل ، ويختل بذلك التخطيط لحركة الحياة . والذين يأتون ويشربون ويقولون : نريد أن ننسى همومنا نقول لهم : ليس مراد الشارع أن ينسى كل واحد ما أهمه ؛ لأنه إن نسى كل واحد ما أهمه فلن يحتاط أحد ولن يقوم على تقدير الأمور التى تضمن السلامة .

إن الشارع يطلب منك أن تواجه الهموم التى تعانى منها بعقل مضاعف لتزيلها . أما أن تستر العقل فأنت قد هربت من المشكلة ، إذن يجب عليك أن تواجه مشكلات الحياة بعقلك وبتفكيرك . فإن كانت المشكلة قد نشأت من أنك أهملت فى واجب سببى أى له أسباب وقد قصرت فى الأخذ بها فأنت الملوم . وإن كانت المشكلة جاءتك من أمر ليس فى قدرتك ، أى هبطت عليك قضاءً وقدراً ؛ فاعلم أن مُجريها عليك له فيها حكمة .

وقد يكون البلاء ليحميك الله من عيون الناس فيحسدوك عليها ، لأن كل ذى نعمة محسود ، وحتى لا تتم النعمة عليك ؛ لأن تمام النعمة على الإنسان يؤذن بزوالها ، وأنت ابن الأغيار وفى دنيا الأغيار ، وإن تمت النعمة لك فقد تتغير النعمة بالنقصان .

إذن فالتفكير فى ملافاة الأسباب الضارة وتجنبها يأتى بالعقل الكامل ، والتفكير فى الأشياء التى ليس لها سبب يأتى من الإيمان ، والإيمان يطلب منك أن تَرُدَّ كل شىء إلى حكمة الحكيم . إذن فأنت تحتاج إلى العقل فلا تستره بشرب الخمر ؛ لأن العقل يدير حركة الحياة .

البغى نعرف أنه مجاوزة الحد ظلماً أو كبراً ، أو بخلاً . والظلم أن تأخذ حق غيرك وتحرمه من ثمرة عمله فيزهد فى العمل ؛ لذلك يحرِّم الحق أن يبغى أحد على أحد . لا فى عِرضه ، ولا فى نفسه ، ولا فى ماله . ويجب أن نصون العرض من الفواحش ؛ لأن كل فاحشة قد تأتى بأولاد من حرام . وإن لم تأت فهى تهدر العرض ، والمطلوب صيانته ، كذلك لا يبغى أحدٌ على محارم أحد ، وكذلك لا يبغى أحد على حياة إنسان بأن يهدمها بالقتل .

ويصون الحق المال فيمنع عنه البغى فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عدواناً وظلماً ، ومظاهر البغى كثيرة . ومن البغى أن تأخذ سلطة قسراً بغير حق ولكن هناك من يأخذ سلطة قسراً وقهراً بحق ، فإن كنت ـ على سبيل المثال ـ تركب سفينة ، ثم قامت الرياح والزوابع ، وأنت أمهر فى قيادتها أتترك الربان يقودها وربما غرقت بمن فيها أم تضرب على يده وتمسك بالدفة وتديرها لتنقذها ومن فيها ، إنك فى هذه الحالة تكون قد أخذت القيادة بحق صيانة أرواح الناس ، وهذا بغى بحق ، وهو يختلف عن البغى بغير الحق . وحتى نفرق بين البغى بحق والبغى بغير الحق نقول . إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفيه منه للحفاظ عليه وصيانته وتثميره له ، فنكون قد أخذنا حقًا من صاحبه رعاية لهذا الحق ، فهو وإن كان فى ظاهره بغيا على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام فهذا بغى بحق أو أنه سمى بغيًا ؛ لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظلماً ، ويسمى هذا فى علم البلاغة مشاكلة وهى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبة ذلك الغير ، ونقرأ أيضاً قول الله :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الشورى)

فهل جزاء السيئة يكون سيئة ؟ لا . وإنما هى سيئة بالنسبة لمن وقعت عليه ؛ لأنه لمّا عمل سيئة واختلس مالا ـ مثلا ـ وضربت على يده وأخذت منه المال فقد أتعبته ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ ﴾

(سورة النحل)

ومن بغى بغير حق علينا أن نذكره بأن هناك من هو أقوى منه ، وأن يتوقع أن يناله بغى ممن هو أكثر قدرة منه .

وينبهنا الحق إلى العمل الذى لا غفران له : ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ .

ومحال أن ينزل الحق الذى نعبده شريكاً له ويؤيده بالبرهان والسلطان والحجة

على أنه شريك له ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ؛ لأن من خصائص الإيمان أنه سبحانه ينفى هذا الشرك بأدلته العقلية وأدلته النقلية .

وإذا كان الحق قد قال لنا فى هذه الآية :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾

(سورة الأعراف)

فبعض من الآيات الأخرى جمعت هذه الأشياء ، فى إطار إيجازى ومع المقابل أيضاً ، يقول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النحل)

لقد جاء بالفحشاء فى هذه الآية ليؤكد طهارة الأنسال ، وجاء أيضاً بتحريم المنكر والبغى ، وزاد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الإثم فقط . وكأن الإثم فى آية الأمر بالعدل والإحسان والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، مطمور فى « المنكر » ، والمنكر ليس محرماً بالشرع فقط ، بل هو ما ينكره الطبع السليم ؛ وأيضاً فصاحب الطبع غير السليم يحكم أنه منكر إذا كانت المعاصى تعود عليه بالضرر ، هنا يقول : أعوذ بالله منها . وإن كان هو يوقعها على الغير فهو يعتقد أنها غير منكر ، وعلى سبيل المثال نجد رجلاً يبيح لنفسه أن يفتح أعينه على عورات الناس ويتلذذ بهذه المسألة : لكنه ساعة يرى إنساناً آخر يفتح عينيه على عورته أو على ابنته مثلا إنّه يرى فى ذلك أبشع المنكرات ؛ لذلك لابد أن تجعل للمنكر حدًّا يشملك ويشمل غيرك ولا تنظر إلى الأمر الذى تكلف به أنت وحدك ، وإنما انظر إلى الأمر المكلف به الآخرون . . وإياك أن تقول : إنه حدد بصرى من أن يتمتع بجسم يسير أمامى ، إنه ـ سبحانه ـ كما حرم نظرك إلى ذلك ، حرم أنظار الناس جميعاً أن ينظروا إلى محارمك ؛ وفى هذا صيانة لك .

وبعد أن حلل هذه الطيبات والزينة ، وحرم الفواحش والمنكر والبغى والإثم يقول سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

نحن هنا أمام نص قرآنى تثبته قضايا الوجود الواقعى ؛ فالذين سفكوا ، وظلموا ، وانتهكوا الأعراض ، وأخذوا الأموال . لم يدم لهم ذلك ، بل أمد الله لهم فى طغيانهم ، وأخذهم به أخذ عزيز مقتدر . ولو أراد خصومهم الانتقام منهم لما وصلوا إلى أدنى درجات انتقام السماء . ويجرى الحق هذا الانتقام من الطغاة لصيانة سلامة المجتمع . فإن رأيت فساداً أو طغياناً إياك أن تيأس ؛ لأن الحق سبحانه قد أوضح أن لكل أمة أجلا ، بداية ونهاية ، ففى أعمارنا القصيرة رأينا أكثر من أمة جاء أجلها . إذن فكل طاغية يجب أن يتمثل هذه الآية :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والأجل لكل أمة معروف عند الله ؛ لأن الباطل والظلم إن لم يعض الناس عضة تجعلهم يصرخون فهم لا يستشرفون إلى الحق ولا يتطلعون إليه ، والألم وسيلة العافية لأنه يؤكد لك أن وضعك غير طبيعى ، وعلى ذلك فالمسائل التى تحدث فى الكون وهذه الأمم التى تظلم . وتضطهد . ولها جبروت وطغيان إنما تفعل ذلك إلى أجل معلوم . فإياك أن تيأس ، ولكن عليك أن تستشرف إلى الحق . وإلى جناب الله فتلوذ به وحده ، ولذلك نجد أكثر الناس الذين حدثت لهم هذه الأحداث لم يجدوا إلا واحة الإيمان بالله ؛ ففروا إلى بيته حجاجاً وإلى مساجده عماراً وإلى قراءة قرآنه ذكراً . وننظر إلى هذه الأمور ونقول : إن الطاغية الفاجر مهما فعل فلابد أن يسخره الله لخدمة دينه ، وهناك أناس لولا أن الدهر عضهم وأخنى عليهم كأن سلط عليهم ظالماً لما فروا إلى الله بحثاً عن نجاة ، ولما التفتوا لربنا عبادة .

إن فى واقع حياتنا يعرف كل منا أناساً ، كان الواحد منهم لا يعبد ربه فلا يصلى ولا يصوم ولا يذكر ربه ، ثم جاءت له عضة من ظالم فيلجأ الإنسان المعضوض إلى الله عائذاً به ملتجئا إليه ، ولذلك نقول للظالم : والله لو عرفت ماذا قدمت أنت لدين الله ، ولم تأخذ عليه ثواباً لندمت ، فأنت قد قدمت لدين الله عصبة ممن كانوا من غير المتدينين به . ولو أنك تعلم ما يأتى به طغيانك وظلمك وجبروتك من نصر لدين الله لما صنعته أنت ، إنّ لكل أمة أجلاً ، فإن كنت ظالماً وعلى رأس جماعة ظالمة فلذلك نهاية .

وانظر إلى التاريخ تجد بعض الدول أخذت فى عنفوانها وشدتها سيادة على الشعوب ، ثم بعد فترة من الزمن تحل بها الخيبة وتأتى السيطرة عليها من الضعاف ؛ لأن هذا هو الأجل . إن الحق يعمى بصائرهم فى تصرف ، يظنون أنه يضمن لهم التفوق فإذا به يجعل الضعيف يغلبهم ويسيطر عليهم . وإذاجاء الأجل فلا أحد يستطيع تأخيره ؛ لأن التوقيت فى يد قيوم الكون ، وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، ونلحظ هنا وجود كلمة « ساعة » ، والساعة لها اصطلاح عصرى الآن من حيث إنها معيار زمنى لضبط المواقيت ، ونعلم أن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، والأقل من الساعة الدقيقة ، والأقل من الدقيقة الثانية ، والأكبر من الساعة هو اليوم . ومن يدرى فقد يخترع البشر آلاتٍ لضبط الجزء من الثانية .

وكذلك تطلق الساعة على قيام القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هنا ينادى الحق أبناء آدم ، بعد أن ذكرهم أنه أحل لهم الطيبات والزينة وحرم

عليهم المسائل الخمسة من الفاحشة والمنكر والبغى والإثم والشرك ، ووضع لهم نظاماً يضمن سلامة المجتمع ، وطمأنهم بأنه منتقم من أى أمة ظالمة بأن جعل للظلم نهاية وأجلاً . فعليكم يا بنى آدم أن تأخذوا أمور حياتكم فى إطار هذه المقدمات .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

عليكم أن تستقبلوا رسل الله استقبال الملهوف المستشرف المتطلع إلى ما يحميه وإلى ما ينفعه ؛ لأن الرسول هو من يعلن لكل واحد منكم ما أحله الله من طيبات الحياة وملاذها ، ويبين لكم ما حرم الله ليحيا المجتمع سليماً .

كان المظنون أن ساعة يأتى الرسول نجد المجتمع يحرص على ملازمته وعلى تلقى البلاغ منه ، لا أن يظل الرسول يدعو باللين بينما المجتمع يتأبّى عليه . لكن من رحمة الله أن يتأبّى المجتمع ويلح الرسول مبيناً آيات الله وبيناته كى يأخذ كل إنسان ما يساعده على أمر حياته ويهتدى إلى الصراط المستقيم ، وأنت إذا ما أصبت فى عافيتك تلح على الطبيب وتبحث عنه ، فكان مقتضى العقل أنه إذا جاء رسول ليبلغنا منهج الله فى إدارة حركة الحياة أن نتشوق إليه ونتطلع ، لا أن نعاديه ، وعادة ما يسعد بالرسول أهل الفطرة السليمة بمجرد أن يقول الرسول : إنه رسول ومعه آية صدقه . ويقيس أهل الفطرة السليمة قول الرسول بماضيه معهم ، فيعلمون أنه مخلص لم يرتكب الإثم . وهذه فائدة قوله الحق :

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلم يأت لكم إنسان لا تعرفونه بل لكم معه تاريخ واضح وجلى ، ولذلك نجد الذين آمنوا برسول الله أول الأمر لم ينتظروا إلى أن يتلو عليهم القرآن ، لكنهم آمنوا به بسوابق معرفتهم له ؛ لأنهم عايشوه ، وعرفوا كل تفاصيل أخلاقه . ومثال ذلك : عندما أخبر محمد صلى الله عليه وسلم سيدتنا خديجة ـ رضوان الله عليها ـ بنبأ

رسالته وأسرّ لها بخوفه من أن يكون ما نزل إليه هو من أمور الجن أو مسها ، أسرعت إلى ورقة بن نوفل ؛ لأنه عنده علم بكتاب ، وقبل ذلك قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتعين على نوائب الحق وتكسب المعدوم » .

وكل هذه المقدمات تدل على أنك ـ يارسول الله ـ فى حفظ الله ورعايته ؛ لأنك كنت مستقيم السلوك قبل أن تُنَبَّأ ، وقبل أن توجد كرسول من الله . وهل معقول أن مَن يترك الكذب على الناس يكذب على الله ؟! وكذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق بمجرد ما أن قال رسول الله : أنا رسول ، قال له : صدقت .

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على صدق الفطرة ، وهذه هى فائدة ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ أو من جنسكم البشرى حتى نجد فيه الأسوة الحسنة . ولو جاء لنا رسول من الملائكة وقال لنا : هذا هو المنهج ولكم أسوة بى ، كنا سنرد عليه الرد المقنع السهل اليسير : وهل نقدر أن نفعل مثلك وأنت ملَك مفطور على الخير ؟ . لكن حين يأتينا رسول من جنسنا البشرى ، وهو صالح أن يصدر منه الخير ، وصالح أن يصدر منه الشر فهو الأسوة الموجودة ، ولذلك كان من غباء الكافرين أن قالوا ما جاء به القرآن على ألسنتهم :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إنه الغباء وقصر النظر والغضب ؛ لأن الله بعث محمداً وهو من البشر ، فهل كانوا يريدون مَلَكاً ؟ ولو كان ملكاً فكيف تكون به الأسوة وطبعه مختلف عن طبائع البشر ؟ . ولذلك يرد الحق الرد المنطقى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وذلك حتى تتحقق لنا الأسوة فيه ؛ فسبحانه لم يقتحم وجودكم التكليفى ، ولم يُدخلكم فى أمر يشتد ويشق عليكم لكنه جاء لكم بواحد منكم تعرفون تاريخه . ولم يأت به من جنس آخر .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

وانظر قوله : ﴿ يقصّون عليكم آياتى ﴾ ، لقد جاء بكلمة « يقصّون » لأن القصص مأخوذة من مادة « القاف » و « الصاد المضعّفة » ؛ وهذا مأخوذ من « قصّ الأثر » ، وكان الرجل إذا ما سرقت جماله أو أغنامه يسير ليرى أثر الأقدام . إذن ﴿ يقصّون عليكم آياتى ﴾ أى أنهم ملتزمون بما جاء لهم ، لا ينحرفون عنه كما لا تنحرفون أنتم عن قص الأثر حين تريدون المؤثر فى الأثر .

﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

و « التقوى » هو أن تجعل بينك وبين شيء يضرك وقاية . ولذلك يقول الحق: ﴿ اتقوا النار ﴾ ، لنرد عن أنفسنا بالعمل الصالح لهيب النار . وإذا قيل: ﴿ اتقوا الله ﴾ أى اتقوا متعلقات صفات الجبروت من الله ؛ لأنكم لن تستطيعوا تحمل جبروت ربنا ، وعليكم أن تلتزموا بفعل الأوامر وتلتزموا أيضاً بترك النواهى . والأمر بالتقوى هنا يعنى ألا ننكر ونجحد رسالات الرسل ؛ لأنهم إنما جاءوا لإنقاذ البشر ، فالمجتمع حين يمرض ، عليه أن يسرع ويبادر إلى الطبيب القادم بمنهج الله ليرعاه ، وهو الرسول ؛ لذلك لا يصح الجحود برسالة عليها دليل ومعجزة . ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

و « أصلح » تدل على أن هناك شيئاً غير صالح فجعله صالحاً ، أو حافظ على صلاح الصالح ورقّى صلاحه إلى أعلى ، مثل وجود بئر نشرب منه ، فإن كانت البئر تؤدى مهمتها لا نردمها ، ولا نلقى فيها قاذورات ، وبذلك نبقى الصالح على صلاحه ، ويمكن أن نزيد من صلاح البئر بأن نبنى حول فوهتها سوراً ، أو أن نقوم بتركيب مضخة تمتص الماء من البئر لضخه إلى البيوت . وبذلك نزيد الصالح

صلاحاً ، والآفة فى الدنيا هم الذين يدعون الإصلاح بينما هم مفسدون ، يقول الله فيهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فحين تقدم على أى عمل لابد أن تعرف مقدمات هذا العمل ، وماذا ستعطيه تلك المقدمات ، وماذا سوف تأخذ منه . وأبق الصالح فى الكون على صلاحه أو زده إصلاحاً ، وهنا لا خوف عليك ولن تحزن على شىء فاتك ليتحقق قول الحق :

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

وما المقابل لمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ أى هؤلاء الذين أصلحوا واتقوا ؟ المقابل هو ما يأتى فى قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولماذا يكون مصير المكذبين بالآيات والمستكبرين عنها أن يكونوا أصحاب النار ويكونوا فيها خالدين ؟ لأنهم وإن تيسرت لهم أسباب الحياة لم يضعوا فى حسابهم أن يكون لهم نصيب فى الآخرة ولم يلتفتوا إلى الغاية ، وغاب عنهم الإيمان بقول الحق :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ

مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

وهب أن الواحد منهم قد أخذ ما أخذ فى الدنيا ، فلماذا نسى أنها موقوتة العمر ؟ ولماذا لم يلتفت إلى الزمن فى الآخرة ؟ . عليك أن تعلم أنك فى هذه الدنيا ، خليفة فى الأرض ، ومادمنا جميعاً أبناء جنس واحد ومخلوقين فيها والسيادة لنا على الأجناس فلابد أن تكون لنا غاية متحدة ؛ لأن كل شيء اختلفنا فيه لا يعتبر غاية ، فالغاية الأخيرة هى لقاء الله ؛ لأن النهاية المتساوية فى الكون هى الموت ليسلمنا لحياة ثانية ، فالذى يستكبر عن آيات الله هو من دخل فى صفقة خاسرة ؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن زمن الإنسان فى الدنيا قليل ، وزمن الآخرة لا نهاية له . وعمر الإنسان فى الدنيا مظنون غير متيقن ، والمتعة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته ، لكن الآخرة متيقنة ، ونعيم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأعراف)

وأصحاب النار . يعنى أن يصاحب ويلازم المذنب النار كما يصاحب ويلازم الإنسان منا صاحبه ؛ لأن النار على إلف بالعاصين ، وهى التى تتساءل: ﴿ هل من مزيد ﴾ ؟ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ

ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

و ﴿ فمن أظلم ﴾ تأتى على صيغة السؤال الذى لن تكون إجابته إلا الإقرار . ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ؛ لأنه أولاً ظلم نفسه ، وظلم أمته ، وأول ظلم النفس أن يرتضى حياة زائلة وأن يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فلأنه سيأخذ أوزار ما يفعلون ؛ لأنه قد افترى على الله كذباً. ﴿ أو كذب بآياته ﴾ .

أى قوَّل الله ما لم يقله ، أو كذَّب ما قاله الله ، وكلا الأمرين مساوٍ للآخر . والآية ـ كما نعلم ـ هى الأمر العجيب ، والآيات أُطلقت فى القرآن على معانٍ متعددة ؛ فالحق يقول :

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وكذلك أطلقت على المعجزات التى يرسلها الله تأييداً لرسله .

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فالآيات هنا هى المعجزات أى الأمور العجيبة .

وحدثنا القرآن عن الآيات الكونية فقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

فالآية إذن هى الشىء العجيب وهى تشمل آيات القرآن ؛ لأنك حين تنظر إلى نظم آيات القرآن ، وإلى استيعابها إلى حقائق الوجود وإلى استيفائها لقضايا الكون

كله تقول لنفسك : هذا شيء عجيب ؛ لأن الذى جاءت على لسانه هذه الآيات نبى أمى ، ما عُرف عنه أنه زاول تعلماً ، وما جربوا عليه أنه قال شعراً ، أو نثراً ، أو له رياضة فى الكلام ، وبعد ذلك ما جرب حكم أمم ، وما درس تاريخ الأمم حتى يستنبط القوانين التى أعجزت الحضارات المعاصرة عن مجاراتها .

إن الأمة البدوية حينما ذهبت بمنهجها إلى الفرس ، وكانت الفرس لها حضارة الشرق كلها ، وعلى الرغم من ذلك أخذت الفرس قوانينها من هذه الأمة البدوية ، وكان كل نظام هذه الأمة المتبدية قبل مجئ الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلخص فى نظام القبيلة وكل قبيلة لها رئيس ، وبعد أن جاءت رسالته صلى الله عليه وسلم جاء بنظام يجمع أمم العالم كلها ، ثم ينجح فى إدارة الدنيا كلها ، وهذه مسألة عجيبة ، وكل آية من هذه الآيات كانت معجزة وعجيبة .

وكذلك الآيات الكونية التى نجدها تتميز بالدقة الهائلة ؛ فالشمس والقمر بحسبان ، وكل فى فلك يسبحون ، إنه نظام عجيب .

إذن فالعجائب فى الآيات هى آيات القرآن ، والمعجزات والآيات الكونية . وكيف يكذبون إذن بالآيات ؟ . ألا ينظرون إلى الكون ، وما فيه من دقة صنع وهندسة بناء تكوينى لا تضارب فيه ؟ وهى آيات تنطق بدقة الخالق ؛ فهو العالم ، القادر ، الحكيم ، الحسيب . وكذلك كيف يكذبون الرسول القادم بالمعجزات ، ويقولون : إنه ساحر ، وحين تتلى عليهم آيات القرآن يكذبونها . إذن هم لم ينظروا فى آيات الكون ليستنبطوا منها عظمة الصانع وحكمته ودقته ، ولم يلتفتوا إلى الإيمان به قمة عقيدية ، وكذلك كذبوا بالآيات المعجزات التى جاء بها الرسل فلم يصدقوا الرسل وآخرها وقمتها آيات القرآن العظيم .

وحينما عرض الحق سبحانه وتعالى هذه القضية ، تساءل : كيف تقولون . إنه سحر الناس فآمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنتم ؟ . وحينما قالوا :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

قال الحق :

﴿ لِسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

وقالوا :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِىَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

فيُعَلِّم الحق رسوله أن يقول :

﴿ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرًا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة يونس)

وهنا يأمر الحق رسوله أن يذكرهم بأنه عاش بينهم أربعين عاماً فهل عرف عنه أنه يقول أو يتكلم بشىء من هذا ؟

فهل يترك الحق من كذبوا بالآيات ؟ إنهم خلق من خلق الله ، والله استدعاهم إلى الوجود ، لذلك يضمن لهم مقومات الحياة ، وأمر أسباب الكون أن تكون فى خدمة هؤلاء المكذبين الكافرين كما هى فى خدمة الطائعين المؤمنين . ومن يُحسن منهم الأسباب يأخذ نتائجها ، وإن أهمل المؤمنون الأخذ بالأسباب فلن يأخذوا نتائجها ، وكل هذا لأنه عطاء ربوبية ولأنه خلق فلا بد أن يرزق ، والنواميس الكونية تخدم الطائع وتخدم العاصى ؛ لأن ذلك من سنة الله ولن يجد أحد لسنة الله تبديلا .

إذن فكفرهم لن يمنع عنهم نصيبهم من الكتاب الذى قَدَّر لهم ، من الرزق والحياة ، ما هو مسطر فى الكتاب الذى أنزل عليهم ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

أو ينالهم ، أى يصيبهم عذاب مما هو مبين فى الكتاب الذى أرسلناه ليوضح أن الطائع له الثواب ، والعاصى له العقاب ، فيقول الحق هنا :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

وساعة تسمع ﴿ يتوفونهم ﴾ تفهم أن الحياة تنتهى ، وتنفصل الروح عن الجسد فهذا هو « التوفى » ، فمرة ينسب إلى الحق الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة ينسب إلى المَلَك ، ومرة يراد منه أتباع المَلَك أى جنوده يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ، والأساليب الثلاثة ملتقية ؛ لأن ملك الموت لم يأت بالموت من عنده ، بل أخذ التلقى من الله ، فالأمر الأعلى من الله ، وأمر التوسط للملك ، وأمر التنفيذ للرسل .

و « التوفى » على إطلاقه هو استيفاء الأجل ، فإن كان أجل الحياة فهو توفية بالموت ، وإن كان الأجل البرزخ وهو المدة التى بين القبر والحساب . إلى أن يجئ ميعاد دخولهم النار فهذا هو توفى أجلهم الثانى ؛ لأن كل إنسان له أجلان : أجل ينهى هذه الحياة ، والأجل الذى يأخذه فى البرزخ إلى أن يجىء الحساب . وهذا لا يمنع أن يقال : إن قيامة كل إنسان تأتى بموته ؛ لأن للقيامة مراحل بدءا من القبر ونهاية بالخلود فى الجنة أو فى النار .

وحين تسألهم الملائكة :

﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

هم إذن يعترفون أن من كانوا يدعونهم من دون الله قد غابوا واختفوا ولا يظهر لهم أثر .

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

(من الآية ١٠ سورة السجدة)

وهم - إذن - يقرون غياب من كانوا يدعونهم من دون الله ، والمراد أنه لا وجود لهم ، وهم بذلك قد شهدوا على أنفسهم بكفرهم . ولكن هذه الشهادة لا تجدى لأن زمن التكليف قد انتهى ، وهم الآن فى دار قهر لكل ما يريده الله ؛ ففى دار التكليف كان الإنسان حرًا أن يفعل أو ألّا يفعل ، ولكن فى الدار الآخرة لا تنفع هذه الشهادة . وذلك لتبين عدالة الجزاء الذى يصيبهم ، ولن يتأبوا على الجزاء ؛ لذلك يقول الحق :

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر ﴿ كن ﴾ سيدخلون النار كما دخلتها أمم قد خلت من قبلهم فليسوا بدعاً ، وليدخلوا معهم إلى المصير الذى يذهبون إليه ، وهم أمم خليط ؛ لأن الكفر سوف يلتقى كله فى الجزاء .

إن الاقتداء بالأمم التى سبقت هو الذى قادهم إلى الكفر ؛ فالأمم التى سبقت كانت أسوة فى الضلال للأمة التى لحقت ، فإذا ما دخلوا لعنوهم .

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لجرم ارتكبه ، وبعد ذلك دخل عليه من كان

يغريه بالجرم . ومن كان يزين له ، ومن اقتدى به . بالله ساعة يلتقيان فى السجن ألا يلعن الأول الثانى ؟

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجتمعوا ، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب :

﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

فإن قلت الأخرى أى التى دخلت النار متأخرة كانت الأولى هى القدوة فى الضلال وقد سبقتهم إلى النار ، ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ ، أى أن الأولى هم القادة الذين أضلوا ، والطائفة الأخرى هم الأتباع الذين قلدوا . ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ . وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا : ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ .

كيف يتأتى هذا ؟ . وكان المقياس أن يقول : قالت أخراهم لأولاهم أنتم أضللتمونا لكن جاء هذا القول ، لأن الذين أضلوا غيرهم أهون من أن يخاطبوا ؛ ولأن الموقف كله فى يد الله ، وإذا ما قالوا لله المواجه للجميع : ﴿ هؤلاء أضلونا ﴾ فهؤلاء ، هذه إشارة إليهم ، فكأن القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة لإضلالهم وهم يقولون لربنا هذا حتى يأخذوا عذاب الضعف من النار مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

فقال الله لهم جميعاً : ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما ضلت وأضلت . ونفهم أن الضِّعْف معناه « شيء مساوٍ لمثله » ، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتم سواكم بالأسوة أيضاً ؛ لأنكم كثّرتم عددهم وقويتم شوكتهم وأغريتم الناس باتباعهم .

ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتم أيضاً ، وأنتم لا تعلمون أن من يحاسبكم دقيق فى الحساب ، ويعطى كل إنسان حقه تماماً .

وماذا تقول أولاهم لأخراهم ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أُولَـٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

أى ما دمتم ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرءوس « فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » كأن المجرم نفسه ساعة يلتقى ويستقبل مجرماً مثله ، يقول له : اشرب من العذاب نفسه ، وليس ذلك تجنياً من الله ، ولا بسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم ؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم .

ومعلوم أن التذوق فى الطعوم ، فهل هم يأكلون العذاب ؟ . لا ، إنّ الحق قد جعل كل جارحة فيهم تذوق العذاب ، و الحق حين يريد شمول العذاب للجسم يجعل لكل عضو فى الجسم حساسية الذوق كالتى فى اللسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

وهذه هى الإذاقة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد . ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ .

ولم يقل الحق : بما كنتم تكتسبون ؛ لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من أن الأمر الطبيعى فى التكوين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلف ولا تصنّع ، وفى السيئات يجاهد نفسه ؛ لأن ذلك يحدث على غير ما طبع عليه ، ولكن هؤلاء من فرط إدمانهم للسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات ، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبيعى ، وهذا هو الخطر الذى يحيق بالمسرفين على أنفسهم ؛ لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

والحق يريد أن يعطى حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليُعرف بجريمته ، وهى جريمة غير معطوفة على سابقة لها ، وليعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأنّ من يرتكبها يلقى حكماً وعقاباً . ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴾ .

وقد عرفنا من قبل معنى الآيات ، وأنها آيات القرآن المعجزة أو الآيات الكونية ، وأى إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لمنهج جاء به رسول عرف بين قومه بأمانته ، هذا الانسان يستحق العقاب الشديد . فصحيح أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن له من الجاه ولا السلطان ما ينافس به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول :

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

إنهم يعترفون بعلو القرآن ، لكنهم تمنوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازينهم المادية .

ومن يكذب الآيات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تفتح له أبواب السماء .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الآية ٤٠ سورة الأعراف)

وبذلك نعرف من هم الذين لا تفتح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء . . إنهم المؤمنون ، وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى . أما المكذبون فهم لا يترقّون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة ، وقد علق سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً : (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) .

و « سم الخياط » هو ثقب الإبرة ، أى الذى تدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطر الثقب ، وأن تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف ؛ لأنها إن كانت مقصوصة وأطرافها مستوية فهى لا تدخل فى الثقب ؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليدخلها فى ثقب الإبرة .

وحين نأتى بالجمل ونقول له : ادخل فى سم الخياط ، فهل يستطيع ؟ طبعاً لا ؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنة على مستحيل .

بعض الناس قالوا : وما علاقة الجمل بسم الخياط ؟

نقول : إن الجمل يطلق أيضا على الحبل الغليظ المفتول من حبال ، مثل حبال المركب إننا نجده سميكاً مجدولاً .

وأخذ الشعراء هذه المسألة ؛ ونجد واحداً منهم يصف انشغاله بالحبيب وشوقه إليه وصبابته به حتى يهزل ويستبد به الضعف فيقول :

ولو أن ما بى من جوى وصبابة
على جمل لم يدخل النار كافر

لأن الجوى والصبابة التى يعانى منهما هذا الشاعر ، لو أصيب بهما الجمل فلسوف ينحف وينحف ويهزل ، إلى أن يدخل فى سم الخياط ، وهنا يوضح ربنا : إن دخل الجمل فى سم الخياط فسوف أدخلهم الجنة .

﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأعراف)

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجرموا .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

المهاد هو الفراش ، ومنه مهد الطفل ، والغاشية هى الغطاء ، أى أن فرش هذا المهاد وغطاءه جهنم . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الزمر)

إذن الظلل والغواشى تغطى جهتين فى التكوين البعدى للإنسان ، والأبعاد ستة وهى : الأمام والخلف ، واليمين والشمال ، والفوق والتحت ، والمهاد يشير إلى التحتية ، والغواشى تشير إلى الفوقية ، وكذلك الظلل من النار ، ولكن الحق شاء أن يجعل جهنم تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذا يعنى شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين .

وجهنم مأخوذة من الجهومة وهى الشىء المخوف العابس الكريه الوجه ، ثم يأتى بالمقابل ليشحن النفس بكراهية ذلك الموقف ، ويحبب إلى النفس المقابل لمثل هذا الموقف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبهذا يخبرنا الحق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون ، ويضع لنا الحق تنبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ؛ لنفهم أن المسرفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات لم يفهموا حقيقة الإيمان ، وأن حبس النفس عن كثير من شهواتها هو فى مقدور النفس وليس فوق طاقتها ؛ لذلك أوضح لنا سبحانه أنه كلف بـ « افعل ولا تفعل » وذلك فى حدود وسع المكلَّف .

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة نجد الحق قد قال فى أهل النار :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً ، ولا يتوقف الأمر على ذلك ، ولكنهم يدخلون النار ، إذن فهنا أمران : سلب النافع وهو دخولهم الجنة ، إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم ، وذلك جزاء إجرامهم . وبعد ذلك كان إدخالهم النار ، وهذا جزاء آخر ؛ فقال الحق :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فى الأولى قال : ـ سبحانه ـ (وكذلك نجزى المجرمين) .

وفى الثانية قال : (وكذلك نجزى الظالمين) .

فكأن الإجرام كان سبباً فى ألاّ يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أن يكون من فوقهم غواش ، ولهم من جهنم مهاد ، وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

ومن المناسب بعد تلك الشحنة التى تكرُّهنا فى أصحاب النار وفى سوء تصرفهم فيما كلفوا به أولاً ، وبسبب بشاعة جزائهم ثانيا ؛ أن نتلهف على المقابل . فقال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقول الحق سبحانه وتعالى : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » جاء بين المبتدأ والخبر ، ككلام اعتراضى ؛ لأن الأسلوب يقتضى إبلاغنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الخلود فى الجنة ، وجاءت « لا نكلف نفساً إلا وسعها » بين العمدتين وهما المبتدأ والخبر ؛ لأننا حينما نسمع « والذين آمنوا » فهذا عمل قلبى ، ونسمع بعده « وعملوا الصالحات » وهذا عمل الجوارح ، وبذلك أى بعمل القلب مع عمل الجوارح يتحقق من السلوك ما يتفق مع العقيدة . والاعتقاد هو ما يسهل دائما السلوك الإيمانى ويجعل مشاق التكاليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهينة ، ولذلك أوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أنى قد كلفتكم فوق طاقتكم ، لا ؛ فأنا لا أكلف إلا ما فى الوسع ، وإياكم أن تفهموا قولى: « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » هو رغبة فى إرهاق نفوسكم ، ولكن ذلك فى قدرتكم لأننى المشرع ، والمشرع إنما يضع التكليف فى وسع المكلَّف .

ونحن فى حياتنا العملية نصنع ذلك ؛ فنجد المهندس الذى يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدراتها ، فلا يحملها فوق طاقتها وإلا تفسد . وإذا كان الصانع من البشر لا يكلف

الآلة الصماء فوق ما تطيق ، أيكلف الذى خلق البشر فوق ما يطيقون ؟ محال أن يكون ذلك .

إذن فيجب أن نوصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحللوا من التزامات التكليف عليهم ، فلا تعلق الحكم على وسعك الخائر الجائر ، ولكن علق الوسع على تكليف الله ، فإن كان قد كلف فاحكم بأن ذلك فى الوسع ؛ والدليل على كذب من يريد الافلات من الحكم هو محاولته إخضاع الحكم لوسعه هو ؛ أنّ غيره يفعل ما لا يريد أن يفعله . فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجد غيرك لا يشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، وكذلك تجد من يمتنع عن الزنا أو أكل الربا ؛ فإذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل فمن لا يمتنع عن مثل هذه المحرمات هو المذنب لا لصعوبة التكليف .

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم بـ«افعل» و«لاتفعل» وسبحانه لايكلف الإنسان إلّا إذا كان قادراً على أن يؤدى مطلوبات الشرع ؛ لأن الله لا يكلف إلا على قدر الطاقة ، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت ، طعام ، شراب ، لباس ، وغير ذلك مما تحتاج إليه الحياة ، ولذلك أوضح سبحانه أنه يوفر للإنسان كل ماديات الحياة الأساسية ، وإياكم أن تظنوا أن الله حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذى يضع نفسه فى موضع الشطط . فقال :

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾

(من الآية ٧ سورة الطلاق)

« قدر على رزقه » أى ضيق عليه قليلاً .

ويقول سبحانه :

﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الطلاق)

إذن لا تفترض وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إخضاع وارداتك إلى هذا التصور ، بل انظر إلى الوارد إليك وعش فى حيز وإطار هذا الوارد ، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروفك يساوى دخلك ؛ لأن الله لا يكلفك إلا ما آتاك .

ولننظر إلى ما آتانا الله ؛ لذلك لا تدخل فى حساب الرزق إلا ما شرع الله ، فلا تسرق ،

ولا تنهب ولا تختلس ولا ترتش ثم تقول : هذا ما آتانى الله ، لا ، عليك ألّا تأخذ ولا تنتفع إلا بما أحل الله لك ، فإن عشت فى نطاق ما أحل الله يعينك الله على كل أمرك وكل حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحق مهمات الحياة التى تتطلب أن تزيد على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك . وتجد نفسك ـ على سبيل المثال ـ وأنت تدخل السوق وآتاك الله قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات ، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا فى حدود ما فى طاقتك ، وكذلك يُحسّن لك الله ما فى طاقتك ويبعد عنك ما فوق طاقتك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يحرك شهوات النفس إلا فى حدود ذلك .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأصحاب الجنة هم الذين لا يفارقونها مثلما يحب الصاحب صاحبه ؛ فالجنة تتطلبهم ، وهم يتطلبون الجنة ، والحياة فيها بخلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن له خلود ، وأنت فى الدنيا تخاف أن تموت وتفوت النعمة ، وإن لم تمت تخاف أن تتركك النعمة ؛ لأن الدنيا أغيار ، وفى ذلك لفت لقضايا الله فى كونه ، تجد الصحيح قد صار مريضاً ، والغنى قد صار فقيراً ، فلا شىء لذاتية الإنسان . وبهذا يعدل الله ميزان الناس فيأتى إلى الحالة الاقتصادية ويوزعها على الخلق ، ونجد الذى لا يتأبى على قدر الله فى رزقه وفى عمله يجعل الله له بعد العسر يسراً . وفى الجنة يُخلى الله أهلها من الأغيار .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ

وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وقوله الحق: « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » ينطبق - أيضا - على أهل الاجتهاد الذين اجتهد كل منهم فى الدنيا ، واختلفوا ، هؤلاء يبعثون يوم القيامة وليس فى صدر أحدهم غل ولا حقد . ولذلك تجد سيدنا الإمام عليّاً - كرم الله وجهه - حين يقرأ هذه الآية يقول : « اللهم اجعلنى أنا وعثمان وطلحة والزبير من هؤلاء » . لأن هؤلاء هم الذين وقع بينهم الخلاف فى مسألة الخلافة ، وكل منهم صحابى ومبشر بالجنة ، فإن كانت النفوس قد دخلت فيها أغيار ، فإياكم أن تظنوا أن هذه الأغيار سوف تصحبكم فى دار الجزاء فى الآخرة ؛ لأن الله يقول : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍ ﴾ .

إن الخلاف كان خلافاً اجتهادياً بين المؤمنين وهم قد عملوا الصالحات وكل منهم أراد الحسن من الأعمال ، ونشأ عن ذلك فى أغيار الدنيا شىء من عمل القلب ، فأوضح سبحانه : إياكم أن تفهموا أن ذلك سوف يستمر معهم فى الآخرة ؛ لأنهم جميعاً حينما اختلفوا كانوا يعيشون باجتهادات الله ، وفى الآخرة لا اجتهاد لأحد . ويريد الحق أن يجعل هذا الأمر قضية كونية ، ومثال ذلك تجد رجلاً قد تزوج امرأة بمقاييس غير مقاييس الله فى الزواج ؛ تزوجها لأنها جميلة مثلاً ، أو لأن والدها له جاه أو غنى ، وبعد الزواج لم يعطه والدها الغنى شيئاً من ماله فيقول : غشنى وزوجنى ابنته ، أو كانت جميلة ، ثم لقى فيها خصالاً قبيحة كثيرة فكرهها ، ونقول لمثل هذا الرجل : مادمت لم تأخذها بمقاييس الله فعليك أن تنال جزاء الاختيار .

ولكن من تزوج امرأة على دين الله ، ووجد منها قبحاً ، فلن يصحبه هذا القبح فى الآخرة ، ولذلك نجد الحق قد جاء بهذه القضية بالذات ، ولم يأت بها فى الأبناء أو فى البنات ، بل فى الزوج والزوجة لأنهما عماد الأسرة . فبيّن للرجل : إياك أن تتخيل أن المرأة التى غاظتك أو أتعبتك أو كدرت عليك بخصلة سيئة فيها ، إياك أن تظن أن هذه الخصلة السيئة ستصاحبها فى الآخرة ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة آل عمران)

وأزواج مطهرة من الأشياء التى كنت تغضب منها وستكون مطهرة بتطهير الله لها .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

ونجد الحق يقول مرة : « تجرى تحتها الأنهار » ومرة يقول : « تجرى من تحتهم الأنهار » ، ونجد « مِن » فارقاً بين القولين . إننا نرى من يستقر فى قصر ونجد الماء منساباً حوله وتحته يسر العيون ، وماء الآخرة هو ماء غير آسن ، وليس فيه أكدار الدنيا ، وكما أننا نسر بالماء فى الدنيا سنسر به أضعاف ذلك فى الآخرة . وقد تجرى المياه تحت القصر ولكن نبعها من مكان بعيد فيخاف صاحب القصر أن يقطعها آخر عنه ، ويطمئن الحق عباده الصالحين : ستجرى من تحت جنانكم الأنهار وكل المياه ستكون ذاتيتها من موقع كل مكون أنت فيه ولن يتحكم فيك أحد ، ولن يسد أحد عنك منبع المياه وسترى أنهار الآخرة بلا شطآن ؛ لأن كل شىء ممسوك لا بالأسباب كما فى الدنيا ، ولكن بـ « كن » التى هى لله . ولذلك يقول العباد فى جنة الآخرة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إنهم يقولون الحمد لله لأنه جل وعلا قد جمعهم ودلهم وأرشدهم إلى الثواب والنعيم دون منغصات ، والحمد لله هى عبادة يقولها المؤمنون فى الآخرة ؛ لأنهم أدوا حق الله فى تكاليفه فى الدنيا ويعطيهم الله فوق ما يتوقعون فى الآخرة . ونعيم الآخرة لا قيد عليه ، ولن يستطيع بشر مهما ارتقى بالابتكار أن يصل إلى ما فى الجنة ؛ لأن الشىء يتحقق لك من فور أن يخطر ببالك . (وقالوا الحمد لله) .

وهذا الحمد لله كان فى الدنيا عبادة تكليف ، أمّا فى الآخرة فهو « عبادة غبطة وسرور وتلذذ . (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) .

يقولها المؤمن ؛ لأن الله لو لم ينزل منهجاً سماوياً يحدد له حركة حياته استقامة وينذره

ويخوفه من المعاصى لما وصل إلى الجنة . والهداية ـ كما قلنا ـ هى الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، إذن لابد أن تعرف الغاية أولاً ثم تضع الطريق الموصل لها ، بحيث لا يكون معوجاً ولا يعترضك فيه ما يطيل عليك المسافة ، وقوله الحق : « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » يمنع أن يضع البشر للبشر قوانين تهديهم إلى الغاية ؛ لأن البشر أنفسهم لا يعرفون الغاية ؛ لذلك يوضحها لهم خالقهم بمنهجه المنزل على رسوله .

ومادامت الهداية من الله فسبحانه لن يخاطب كل إنسان مباشرة ، لكنه سبحانه ينزل الرسل يتلون علينا آيات الله ويوضحون لنا المنهج ؛ لذلك يأتى الحق فى الآية نفسها بقوله الحكيم :

﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

أنت فى الحياة الدنيا حين تجد من يقول لك : إن أردت أن ترتاح فأنا أنصحك أن تمشى إلى المكان الفلانى واذهب إليه عن الطريق الفلانى ، وستجدك سعيداً مرتاح البال ، ثم صدقته ونفذت ما قال ، ووجدت الرجل صادقاً . ألا تشعر بالسعادة ؟ . وإذا كان الحق قد أرسل الرسل بالبينات والآيات والمنهج الصحيح ، وسار عليه المؤمنون ثم وجدوا الجنة والنعيم ؛ لذلك كان لابد أن يشكروا الله وأن يقولوا : (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) . ولأن الرسل لم يكذبوهم بل جاءوا بالخير لهم .(ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) .

وكأن الحق يوضح لنا ونحن فى دار التكليف أن نستقبل المنهج على هذا الأساس ، وعلى كل واحد أن يحدد مكانه من الجنة ؛ بقربه من منهج الله أو بعده عنه ؛ لأن دخول الجنة هو جزاء العمل طبقاً لمنهج الحق . ووقف العلماء هنا ـ جزاهم الله خيراً ـ وقالوا : كيف نوفق بين هذه الآية :

﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة
قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟
قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة[1] .

وأقول : ليس هناك تناقض بين قول الله سبحانه وتعالى وقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم الذى بلغ عن الله سبحانه ، بل بينهما تأييد ؛ فالحق ساعة ما شرع أوضح أن من يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة ، وهذا التشريع لم يجبر أحد الله عليه ، بل هو الذى يعطيه لنا فضلا منه ؛ فليس لأحد حق على الله ؛ لأنه لا يوجد عمل يعود بفائدة على الله ، واتباع المنهج إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير ، فإن دخلت الجنة فهذا أيضاً بالفضل من الله . وينبهنا القرآن إلى الجمع بين هذه الآيات وأنه لا تعارض بين نص حديثى ونص قرآنى . يقول :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

فجزاء كل عمل عائد على الإنسان لأنّه يأخذ مكافأته على فعله ، فإن كانت المكافأة أكبر من جزاء الفعل فهى من الفضل ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

وسبحانه أيضاً هو القائل :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النجم)

إن فهمت اللغة وكنت صاحب ملكة ناضحة تقول : هذه « اللام » للملك . وتفيد أنه لا حق لك على الله إلا بسعيك على وفق منهج الله ، وأنّ هذه الآية قد حددت العدل ولم تحدد الفضل .

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق والمرضى ومسلم فى صفات المنافقين والترمذى فى الجنائز وأبو داود فى الجنائز ، والنسائى فى الجنائز ، وابن ماجه فى الزهد ، وأحمد فى مسنده ٦/١٢٥ .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

والمثال على ذلك أننا كمسلمين نصلى على الميت المسلم ، وقد أمرنا التشريع بذلك ، وأن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاته . فهل تضيف هذه الصلاة إلى الميت شيئا زائداً عن عمله ؟ لو لم تكن هذه الصلاة تضيف شيئاً لما أمر التشريع بها . فهى صلاة على ميت مسلم ، وإسلامه من عمله ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

أى أن الآباء والأبناء يشتركون معاً فى الإيمان وفى العمل ، وقوله تعالى :

﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

هذا الإلحاق يفيد أن منزلة الذرية كانت أقل من منزلة الآباء ، لكن الحق يرفع من منزلتهم إكراماً للآباء . وهذا الإلحاق جزاء للذرية ، وقد يكون أيضاً جزاء للآباء ؛ فيحضر لهم أولادهم معهم مادام الكل قد اشتركوا فى الإيمان ، وكان الآباء يتحرون الحلال فى إطعام الأبناء ولا يربونهم إلا على منهج الله . وقد يرى الأب أبناء جار له يلبسون الملابس الفاخرة ويأكلون الأكل الطيب ، ويتحمل الأبناء ويعيشون عيش الكفاف مع هذا الأب الملتزم بالعمل الصالح والأجر الحلال ، وينال الأبناء الجنة مع الأب لأنهم تحملوا معه مشاق الالتزام بالحلال .

وهكذا نجد كل إنسان مؤمن قد أخذ نتيجة عمله وزيادة .

﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

و « أورثتموها » من « الإرث » وتدل على أن هناك شيئا آل إلى الغير . ونعلم أن الله ، علم أزلا كيف سيسلك كل مخلوق وما سيفعله من كفر وإيمان وطاعة ومعصية ، وعلى رغم ذلك أعد سبحانه لكل واحد من خلقه مكانه فى الجنة على أنه مؤمن ، وأعد لكل

واحد من خلقه مكاناً فى النار على أساس أنه سيكفر .

إذن فقد أعدَّ سبحانه جناناً بعدد خلقه ، وأعدَّ أماكن فى الجحيم بعددهم ، فليست هناك أزمة أماكن عند إله قادر مقتدر . فإن آمنا كلنا فلن يضيق بنا واسع الجنة ، و ـ والعياذ بالله ـ إن كفر الخلق جميعاً فلن تضيق بهم النار . فإذا كانوا جماعة من خلق سيدخلون الجنة بالعمل ، فأين تذهب أماكن أهل النار ؟ إن الحق بفضل منه يمنحها المؤمنين .

إذن فقد ورثوا الذين لم يستحقوا الجنة بسبب الكفر .

وبعد الكلام فى الجنة والجزاء وفى حمد التلذذ والسرور والغبطة وفى عهد الجنة ، بعد ذلك كان من المناسب أن يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن موقف أهل الجنة من أهل النار ؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وهكذا نرى التبكيت ، وتصور لنا الآية كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وهذا الترائى من ضمن النعيم ومن ضمن العذاب الأليم ، فحين يرى المؤمن بمنهج الله من عاداه وقهره وآذاه وهو فى النار فهذا من تمام اللذة . والآخر حين يرى مخالفه فى الجنة فهذا أيضاً من تمام العذاب . إذن لابد أن يتراءوا ، ولذلك يحدث الحوار ، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار معترفين بأنهم وجدوا ما وعدهم به الله حقاً وصدقاً ، وأن الحق قد وهبهم هذه الجنة . فهل ـ يا أهل النار ـ وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأسلوبين مع أن السياق المنطقى واحد ؛ فأهل الجنة يقولون : « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » ، ولم يأت بالكاف فى كلمة ماوعد (الثانية) بل قال : « فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً » ؟

إنه قال سبحانه : « ما وعد » فقط ، ولم يقل ما وعدكم كما قال : (ما وعدنا) لأن المراد أن يلفتهم إلى مطلق الوعد، وليس الخاص بهم فقط ، بل وأيضا الخاص بالمقابل ، وهكذا يتحقق الوعد المطلق لله . فأهل الجنة بإيمانهم وأعمالهم فى الجنة فضلاً من الله ، وأهل النار فى النار بكفرهم وعصيانهم عقاباً من الله .

وهنا يجيب أهل النار : (قالوا نعم) .

وهذا إقرار منهم بالواقع المشهدى الذى عاشوه واقعاً بعد أن كان وعيداً ، وهم لم يكابروا لأن المكابرة إنما تحدث بين الخصمين فى غير مشهد ، وهم فى الدنيا قبل أن يوجد المشهد كانوا يكذبون البلاغ عن الله ، وصارت الدار الآخرة واقعاً ، وتحقق وجودهم فى النار .

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأعراف)

أى فينادى مناد من الملائكة يُسمع أهلَ الجنَّة وأهل النار بأن الطرد من رحمة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ؛ بعدم الإيمان وبالتكذيب باليوم الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

والذى يصد عن سبيل الله هو من امتنع عن سبيل الله ، وصد غيره ، أى ضلّ فى ذاته ثم أضل غيره ، وهؤلاء هم الذين يطلبون منهج الله معوجاً ، ويذمونه ولا يؤمنون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ، وينفرون الناس عن منهج الله ؛ لينصرف الناس عن الدين . هم إذن قد صدوا عن سبيل الله وطلبوا العوج فيما شرع الله لينفروا الناس عمّا شرع الله ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل هم بالآخرة كافرون ، ولو كان الواحد منهم مؤمناً بالآخرة ويعلم أن له مرجعاً ومرداً إلى الله لما فعل ذلك .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحجاب موجود بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهم يتراءون من خلاله ، وبيّنه الحق سبحانه فقال :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحديد)

باطن هذا الحجاب الرحمة من ناحية أهل الجنة ، وظاهره المواجه لأهل النارفيه العذاب ، والحق هو القادر على كل شيء ؛ لذلك لا ينال أهل الجنة شيء من شقاء أهل النار ، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم أهل الجنة ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم فى أن ينالهم بعض من نور أهل الجنة ، إنكم تلتمسون الهدى فى غير موطن الهدى ؛ فزمن التكليف قد انتهى ، ومن كان يرغب فى نور الآخرة كان عليه أن يعمل من أجله فى الدنيا ، فهذا النور ليس هبة من خلق لخلق ، وإنما هو هبة من خالق لمخلوق آمن به . وأنتم تقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وليس فى مقدور أهل الجنة أن يعطوا شيئاً من نور أهل الجنة فالعطاء حينئذ لله .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

و « كُلًّا » المعنىّ بها أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقد تقدم عندنا فريقان ؛

أصحاب الجنة ، وأصحاب النار وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف ، و « الأعراف » جمع « عُرف » مأخوذ من عرف الديك وهو أعلى شيء فيه ، وكذلك عرف الفرس . كأن بين الجنة مكانا مرتفعاً كالعرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم ، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم ، فكأن من ضمن السمات والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة .

وكيف توجد هذه السمات ؟ يقال إن الإنسان ساعة يؤمن يصير أهلاً لا ستقبال سمات الإيمان ، وكلما دخل فى منهج الله طاعة واستجابة أعطاه الله سمة جمالية تصير أصيلة فيه تلازمه ولا تفارقه . وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة .

وإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون : سلام عليكم ؛ لأن الأدنى منزلة ـ أصحاب الأعراف ـ يقول للأعلى ـ أصحاب الجنة ـ سلام عليكم .

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسناتهم فى ميزان العدل الإلهى الذى لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

والقرآن يقول :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾

(سورة القارعة)

ويارب لقد ذكرت الميزان ، وحين قدرت الموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين اثنين . . فريقا ثقلت موازينه ، وفريقا خفت موازينه ، ومنتهى المنطق فى القياس الموازينى أن يوجد فريق ثالث هم الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم ، فلم تثقل موازينهم فيدخلوا الجنة ، ولم تخف موازينهم فيدخلوا النار ، وهؤلاء هم من تعرض أعمالهم على « لجنة الرحمة » فيجلسون على الأعراف . ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهل الجنة يقولون لهم سلام عليكم على الرغم من أنهم لم يدخلوها ، ولكنهم يطمعون فى أن يدخلوا ، لأن رحمة الله سبقت غضبه .

﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

وبطبيعة الحال ليس فى هذا المكان غش ولا خداع .
وماذا حين ينظرون إلى أهل النار؟

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

انظر إلى التعبير القرآنى « صرفت أبصارهم » أى أنهم لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية ؛ لأنهم يكرهون أن ينظروا لهم لأنهم ملعونون ، وكأن فى « صرفت أبصارهم » لونا من التوبيخ لأهل النار .

وقوله الحق : « وإذا صرفت أبصارهم تلقاء » أى جهة أصحاب النار يقولون : (رَبَّنَا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) .

هنا يدعو أهل الأعراف : يارب جنبنا أن نكون معهم . إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون الله ويستعيذون به ألا يدخلهم معهم .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وكأن أصحاب الأعراف قد صُرفت أنظارهم لأصحاب النار ويرون فيهم طبقات من المعذبين ، فهذا أبو جهل ، وذاك الوليد ، ومعه أمية بن خلف وغيرهم ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيهم كل سلطان وكيان ، وكانوا يسخرون من السابقين إلى الإسلام كعمار وبلال وصهيب وخباب ، وغيرهم ممن عاشوا للحق ومع الحق ، فيقول أهل الأعراف لهؤلاء : (ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) .

وكأنهم يقولون لهم : إنّ اجتماعكم على الضلال فى الدنيا لم ينفعكم بشىء . . شياطينكم ، والأوثان ، والأصنام والسلطان لم ينفعوكم وكذلك استكباركم على الدعوة إلى الإيمان هل أغنى ذلك عنكم شيئاً ؟ لا . لم يغن عنكم شيئاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال بلال وخباب ويقولون لأهل النار من أمثال أبى جهل والوليد بن المغيرة : أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن ينالوا رحمة الله ؟ هم إذن ـ أهل الأعراف ـ قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وكأنهم نسوا موقفهم فى انتظار الفرج وفرحوا بأصحاب الجنة ووبخوا أهل النار ، ولم يشغلهم حالهم أن يقفوا موقف الفصل فى هذه المسألة ، وهنا يدخل الحقُ سبحانه أصحاب الأعراف جنته لفرحهم بأصحاب الجنة ، وتوبيخهم أهل النار ويقول لهم :

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأعراف)

وهؤلاء ـ كما قلنا ـ هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ؛ وهم الطائفة التى جلست على الأعراف ، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة ، ولم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة مستغيثين طالبين أن يعطوهم ويفيضوا عليهم من الماء أو من رزق الله لهم فى الجنة ، فيقول أهل الجنة : نحن مربوطون الآن بـ « كن » ، ولم يعد لنا الاختيار ، وقد حرم الله عليكم أى شيء من الجنة ومنعه عنكم ، فأنتم يا أهل النار ممنوعون أو هذه المتع ممنوعة عنكم . وحين يطلب أهل النار الماء ، فهم يطلبون أوليات الوجود ، فى نار أحاطت بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه .

ولذلك يقول الحق بعد ذلك عن الكافرين الذين حرم عليهم خير الجنة :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية من هم الكافرون الذين حرّم عليهم الجنة ؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وأول مرحلة تمر على الإنسان هى اللعب ثم تأتى له مرحلة اللهو . ونعلم أن كل فعل تُوَجَّه إليه طاقة فاعلة ، وقبل أن تُوجَّه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا الفعل على الذهن كى يحدد الغاية من الجهد .. وهذا المقصود له حدود ؛ إما أن يجلب له نفعاً ، وإما أن يدفع عنه ضُراً . وكل مقصد لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ، فهو لعب .

إذن فتعريف اللعب : هو فعل لم يقصد صاحبه به قصداً صحيحاً لدفع ضر أو جلب نفع . كما يلعب الأطفال بلعبهم ، فالطفل ساعة يمسك بالمدفع اللعبة أو السيارة اللعبة ، هل له مقصد صحيح ليوجه طاقته له ؟ .لا ؛ لأنه لو كان المقصد صحيحاً لما حطم الطفل لُعَبَهُ . والطفل غالباً ما يكسر لعبته بعد قليل ، وهذا دليل على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مضرة .

ولكن حين تُوَجَّه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو ، كأن يكون المطلوب منك شيئا وأنت توجه الطاقة إلى شيء آخر . والذى يعاقب عليه الله هو اللهو . أما اللعب فلا .

ولذلك نجد النبى ﷺ يطلب من الأهل أن يدربّوا الأبناء على شيء قد يفيد الأمة كالسباحة والرماية وركوب الخيل ، ولكن خيبة البشر فى زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته . ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجد ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يُعاقَب ؛ لأن الحَكم يرقب المباراة ، وإذا ما تناسى الحكم أمراً أو أخطأ هاج الجمهور . وأتساءل : لقد نقلتم قانون الجد إلى اللعب ، فلماذا تركتم الجد بلا قانون ؟

وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة ؛ لأن الإنسان اللاهى يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم . فيجلس إلى لعبة النرد وهى الطاولة ويترك الشغل الذى ينتج له الرزق ، وليت هذا اللهو مقصورٌ على اللاهى ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهى ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذى كان يجب أن يُستغل فى طاقة نافعة . وفساد المجتمعات كلها إنما يأتى من أن بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير . إذن فاللهو طاقة معطلة . (اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتّهم الحياة الدنيا) .

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتى من الأسباب التى خلقها الله مستجيبة لهم فظن كل منهم أنه السيد المسيطر . وحين غرتهم الحياة الدنيا نسوا الجد الذى يوصلهم إلى الغاية النافعة الخالدة ، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأعراف)

فهل يعنى قوله عز وجل : « ننساهم » أنه يتركهم لما يفعلون ؟ . لا ، بل تأخذهم

جهنم لتشويهم ، ونسيانهم هنا هو أنه ـ سبحانه ـ لا يشملهم بمظاهر فضله ولطفه ورحمته ويتركهم للنار تلفح وجوههم وتنضج جلودهم .

وهكذا يتأكد من جديد أن الدنيا هى المكان الذى يعد فيه الإنسان مكانه فى الآخرة ، فإن أراد مكاناً فى عليين فعليه أن يؤدى التكليف الذى يعطيه مكانه فى عليين . وإذا أراد مكانه أقل من ذلك فعليه أن يؤدى العمل الأقل . كأن الإنسان بعمله هو الذى يحدد مكانه فى الآخرة ؛ لأن الحق لا يجازى الخلق استبدادا بهم و افتياتاً أو ظلماً ، ولكنه يجازى الإنسان حسب العمل ؛ لذلك فهناك أصحاب الجنة ، وهناك أصحاب النار ، وهناك أصحاب الأعراف . وهذا العلم الذى يُنزله لنا الحق قرآناً ينذرنا ويبشرنا هو دليل لكل مسلم حتى نتنافس على أن تكون مواقعنا فى الآخرة مواقع مشرقة .

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وحين يقول الحق سبحانه : « وما كانوا بآياتنا يجحدون » فالآيات إما آيات كونية :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وإما آيات قرآنية كقوله سبحانه :

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وإما أن تكون آيات معجزات لإثبات النبوة كقوله سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

هم إذن جحدوا الآيات كلها ، وكان أول جحود هو جحود بالآيات الكونية التى

شاهدوها قبل أن يأتى التكليف ، فهم عاشوا الليل والنهار . وتنفسوا الهواء ، واستمتعوا بدفء الشمس ، وروى المطر أراضيهم ووجدوا الكون مرتباً منظماً يعطى الإنسان قبل أن يكون للإنسان إدراك أو طاقة ، وكان يجب أن تلفتهم هذه الآيات إلى أن لهم خالقاً هو الحق الأعلى . وحين جاء لهم الموكب الرسالى جحدوا آيات المعجزات التى تدل على صدق الرسل . وحين جاء القرآن معجزاً جحدوا الآيات التفصيلية التى تحمل المنهج . إذن فلا عذر لهم فى شىء من ذلك لأن الحق يقول :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أى لا عذر لهم فى شىء من هذا الجحود ؛ لأن الكتاب مفصل ، وقد يقولون:إن الكتاب طارىء علينا ، وكذلك الرسول الذى جاء به . إذن فما موقفهم من الآيات الكونية الثابتة ؟ لقد جحدوها أيضا . (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم) .

و« فصلناه » أى أنه سبحانه لم ينزل كلاما مجملاً أو مبهماً ، لا ، بل فيه تفصيل العليم الحكيم ، إنه فصّل أحكامه ومعانيه ومواعظه وقصصه حتى جاء قيما غير ذى عوج ، وسبحانه هو القادر أن ينزل المنهج المناسب لقياس ومقام كل إنسان .

إنه حينما يأتى إلينا من يستفتينا فى أى أمر ويحاول أن يلوى فى الكلام لنأتى له بفتوى تبرر له ما يفعله ، فنحن نقول له : ليس لدينا فتوى مفصلة ؛ لأن الفتاوى التى عندنا كلها جاهزة ، ولك أن تدخل بمسألتك فى أى فتوى .

﴿ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأعراف)

وهناك أناس سمعوا القرآن ورأوا الآيات واهتدوا ، فلماذا اهتدى هؤلاء وضل هؤلاء ؟ لقد آمن من صدق بالوجود الأعلى كما قلنا فى سورة البقرة :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فقد آمن بالقرآن من اهتدى إلى الحق ، ومنهم من أوضح الحق عنهم : أنهم حين يستمعون القرآن تفيض أعينهم من الدمع ، وأيضاً هناك من لا يلمس الإيمان قلوبهم حين يستمعون إلى القرآن .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

وهؤلاء هم الذين غلظت قلوبهم فلم يتخللها أو يدخلها ويخالطها نور القرآن ، لذلك تجد الحق يرد عليهم بقوله سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾

(من الآية ٤٤ سورة فصلت)

سبق أن ضربنا المثل بأن الفعل فى بعض الحالات واحد ، لكن القابل للفعل مختلف ، لذلك تكون النتيجة مختلفة . وعلى سبيل المثال : إذا كنت فى الشتاء ، وخرجت ووجدت الجو بارداً ، وشعرت أن أطراف أصابعك تكاد تتجمد من البرد، فتضم قبضتيك معاً وتنفخ فيهما ، وقد تفعل ذلك بلا إرادة منك لتدفىء يديك . وكذلك حين يأتى لك كوب من الشاى الساخن جداً ، وتحب أن تشرب منه ، فأنت تنفخ فيه لتأتى له بالبرودة . والنفخة من فمك واحدة ؛ تأتى بحرارة ليديك ، وتأتى بالبرودة لكوب الشاى ، وهكذا فالفعل واحد لكن القابل مختلف . وكذلك القرآن فمن كان عنده استعداد للإيمان فهو يهتدى به ، ومن لا يملك الاستعداد فقلبه غلف عن الإيمان .

وموقف هؤلاء العاجزين عن استقبال الرحمة موقف غير طبيعى، وماذا ينتظرون بعد هذا الكفر، وبعد الافتئات وبعد الاستكبار وبعد التأبى وبعد اتخاذ الدين لهواً ولعباً، ماذا ينتظرون ؟

ها هو ذا الحق سبحانه يوضح لهم العاقبة :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

وما معنى التأويل ؟ . . التأويل هو ما يؤول إليه الشىء، هو العاقبة التى يعدها الحق، فالرحمة والجنة لمن آمن، والنار لمن كفر، والحق هو من يقول ويملك قوله لأن الكون كله بيده .

وهنا يقول سبحانه وتعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ .

أي هل ينتظرون إلا المرجع الذى يؤول إليه عملهم ؟ إن مرجعهم الأخير هو العذاب بعد الحساب يوم يأتى تأويل وغاية وعاقبة ما عملوا .

وحين يأتى يوم القيامة ويتضح الحق ويظهر صدق ما جاء به الرسول من الوعد والوعيد ماذا سيكون قولهم ؟ . . سيقولون ما أورده سبحانه على ألسنتهم : ﴿ يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ .

أى أنهم سيعلنون التصديق حين لا ينفع هذا التصديق ؛ لأنهم لن يكونوا فى دار التكليف، سيقرون بالإيمان لحظة لا ينفعهم ذلك .

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

هم إذن يقرون بأن الرسل حملت المنهج الحق ويتساءلون عن الشفيع . ونعلم أن الشفيع لابد أن يكون محبوباً عند من يشفع عنده ، ونحن فى الدنيا نجد من يبحث لنفسه عمن يشفع له عند صاحب جاه يكون أثيرا وعزيزا لديه ، أو يكون له كلمة وفضل عليه فلا يرد عليه كلمته . فمن يأتى يوم القيامة بالشفاعة لهؤلاء ؟ . . لا أحد ، وسنجدهم يتخذون الشفعاء من الذين اتخذوهم أنداداً لله . وسيعلن هؤلاء أيضاً الكراهية لهم ، ولو مكنهم الله من الشفاعة ما أعطوها للكافرين المشركين ؛ ففى الدنيا كان هؤلاء مؤتمرين بأمر البشر وضلالاتهم . أما يوم الحساب فلا أحد خاضع لإرادة أحد ، حتى الجوارح لا تخضع لإرادة صاحبها ، بل هى خاضعة للحق الأعلى . وفى الآخرة لا مرادات لأحد .

وقد ضربنا من قبل المثل وقلنا : هب أن سرية فى جيش ما وعليها قائد صغير برتبة ضابط ، ومفروض فى جنود السرية أن ينفذوا كلامه ، ثم راحوا لموقعة وأعطاهم الضابط الصغير أوامر خاطئة بما له من فرض إرادة عليهم فنفذوا ما أمروا به . ولحظة أن يعودوا ويحاسبهم القائد الأعلى فسيقولون : لقد فعلنا ما أمرنا به الضابط المكلف بقيادتنا ، وكذلك ستأتى الجوارح فى الآخرة : تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وألسنتهم وجلودهم .

إذن فالأبعاض سترفع شكواها إلى الله يوم ألا يكون لأحد من ملك سواه ، ويومئذ سيقول المكذبون الصدق الذى لن ينفعهم :

﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

وسوف يبحثون عن شفاعة ، لكنهم لن يجدوا ، بل إن أول من يسخر من الذين عبدوا غير الله هم المعبودون أنفسهم .

ولذلك نجد قوله الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وما ذنب المعبود ؟ . إن الأصنام لا ذنب لها ، بل كل منها يريد أن يشفى نفسه بأن يكون أداة تعذيب لمن أعطوه غير حقه . ولذلك نجد أن الأحجار التى عُبدت تقول : عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار ؛ لأن القائم فى الأسحار من الأغيار قد يختار أمراً غير هذا ، ولكنا كنا مقهورين على الطاعة ، وقد اتخذوا صمتنا علينا دليلاً .

إن الأحجار تعلن أنها لم تكن تملك قدرة رفض أن يعبدها أحد أو أن تبعده عنها وتعلن له غباءه .

والشاعر يقول :

قد تجنوا جهلا كما قد تجنوا على ابن مريم والحوارى
للمغالى جزاؤه والمغالى فيه تنجيه رحمة الغفار

وهكذا يأتيهم الحق واضحاً يوم القيامة .

إنهم سيطلبون العودة إلى الدنيا ، وهذا من الخيبة ؛ لأن مثل هذا الإقرار ليس من الإيمان ، فالإيمان يكون بالغيب لا فى المشهد . وحتى ولو عادوا ، فلن يؤمنوا ! . والحق هو القائل :

﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأنعام)

وكأنهم نسوا لحظة إقرارهم أنهم من الأغيار ، وأتى فيهم القول الفصل من الله .

﴿ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

لقد جاء لهم الخسران بعد أن غاب عنهم ما كانوا يفترون على الله فى الدنيا ، إنهم

رفضوا عبادته - سبحانه - وعبدوا غيره أصناماً صارت وقوداً للنار التى سيصلونها .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

هنا ربوبية ، وهنا ألوهية : « ربكم الله » ولا أحد يختلف فى مسألة الربوبية لأن الحق يقول على ألسنة الكافرين والمشركين :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الزمر)

وكذلك إن سألتهم من خلقهم ؟ سيقولون : الله ، ولم يدّع أحد لنفسه مسألة الربوبية ، لأن الربوبية جاءت بنفع لهم ، لكن الألوهية دخلت بمنهج هو : « افعل ولا تفعل » ؛ لأن التكليف من الإله الرب ، والتكليف نعمة منه وهو لمصلحتكم أنتم ، فلا شيء فى التكليف يعود على الله . وفعلكم الحسن أو السيىء لن يعطى لله صفة لم تكن له ؛ لأن صفات الكمال أزلية ، وبصفات الكمال خلقكم أنتم ، إذن فأنتم لن تأتوا بصفة ما ، بل بصفات الكمال أوجدكم . وإن كنتم أنتم فى شك فى هذه الربوبية فربكم هو الله - ولله المثل الأعلى - منزه عن التشبيه ، كأن تقول الأم للولد : قال لك أبوك لا تسهر خارج المنزل ليلاً ، فيتأبى الولد . وتنبه الأم ولدها : إن أباك هو الذى يأتى لك بالأكل والشرب ، والملابس ويعطيك مصروف اليد .. إلخ .

وقد ضربت هذا المثل لأشرح كيف أن المُكلفَ هو الرزّاق ولا أحد سواه يرزق ،

لذلك كان يجب أن تقبل تكاليفه لأنه سبق لك بالفضل بأن أعطى لك وسخر لك الدنيا .

ومن قبل فصل الحق سبحانه لنا خلق الإنسان ، ويفصل لنا هنا خلق السماء والأرض لأن ظرف وجود الإنسان هو السماء والأرض ، وكل الخيرات تأتى له من السماء ومن الأرض ، وإذا كان الله قد علمنا كيف خلقنا ، فهو هنا يعلمنا كيف خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان وخلق السموات والأرض مسألتان ينشغل بهما العلم الحديث ، فمن العلماء من قال : إن الأرض انفصلت عن الشمس ، ومنهم من افترض نظرياً أن الإنسان أصله قرد ، ولهؤلاء نقول : هذا حكم منكم لا يُقبل ؛ لأنكم لم تشهدوا الخلق ، ولذلك فعليكم أن تسمعوا ممن خلق الخلق ليقول لكم كيف خلق الخلق .
هو سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والآية تتعرض للخلق الأول وهو السموات والأرض ـ كما أوضحت ـ وهو الظرف الوجودى للإنسان الخليفة ، وطرأ الإنسان على هذا الكون بكل ما فيه من قوى ونواميس ، فكأن الله أعد الكون للخليفة قبل أن يُخلَق الخليفة ليجىء الخليفة فيجد كوناً مسخراً له ؛ ولا يستطيع أى كائن منه أن يخرج عن مراد الله فى شىء (إن ربكم الله الذى خلق) .

ومعنى « خلق » أى أوجد شيئاً كان معدوماً وبرأه على غير مثال سبقه . فربنا سبحانه قدر كل شىء بنظام دقيق غير مسبوق ، هذا هو معنى الخلق ، وكلمة « الخلق » مادتها الفاعلة هى : خالق ، وسبحانه وتعالى يجمعها مع أنه الخالق الوحيد فيقول :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

إذن فهناك الخالق الأعلى وهو الله ، ولكنه سبحانه أيضا أشرك خالقاً غيره معه فقال

جل وعلا : (فتبارك الله أحسن الخالقين) . كيف ؟ ؛ لأن الخلق إيجاد شيء معدوم ، والذى صنع الميكرفون يقال خلقه ، والذى صنع الكوب يقال خلقه ، والذى صنع المصباح يقال خلقه ، لأنه كان شيئاً معدوماً بذاته ، فأوجده . لكن الفارق أن الخالق من البشر يوجد معدوماً من موجود ولا يأتى بمادة جديدة ؛ فمن أخذ المواد الموجودة فى الكون وصمم منها المصباح وصهر الرمل وفرغ الهواء داخل الزجاج يقال له : خلق المصباح وأوجد معدوماً من موجود .

لكن الخالق هو خير الخالقين لأنه يخلق من عدم ولم يحرم خلقه حين يوجدون شيئا معدوماً من أن يوصف الواحد منهم بأنه خالق ، وسبحانه حين خلق خلق من لا شىء ، وأيضاً فإنكم حين تخلقون أى صنعة تظل جامدة على هيئة صناعتها ، فمن صنع الكوب من الرمل المصهور يظل الكوب هكذا ، ولا نستطيع ـ كما سبق أن قلت قديماً ـ أن نأتى بكوب ذكر ، وكوب أنثى ، ونضعهما معاً فى مكان ونقول لهما :أنجبا لنا أكواباً صغيرة .

لكن ما يخلقه ربنا يعطى له سر الحياة ويجعله بالقانون ينتج غيره وينمو ويكبر . إذن فهو أحسن الخالقين .

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خلقه السموات والأرض . وأوضح سبحانه أن السموات سبع وقد جاءت مجموعة . أما الأرض فجاء بها مفردة . لكنه جل وعلا قال فى آية أخرى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ .

(من الآية ١٢ سورة الطلاق)

فكما خلق سبع سموات خلق سبع أراضين ، ولماذا جاء بالسماء بالجمع وترك لفظ الأرض مفرداً ؟ . . لماذا لم يقل : سبع أراضين ؟ ؛ لأن كلمة « أراضين » ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها وأتى بالسموات مجموعة لخفتها ويسر نطقها .

والسماء هى كل ما علاك فأظلك ، هذا معنى السماء فى اللغة . لكن هل السماء التى يريدها الله هى كل ما علاك ؟ . . إن النجم هو ما علاك ؛ وقد يقال : إن الشمس علتك ، والقمر علانا جميعاً . ونلفت الانتباه هنا ونقول للناس الذين أحبوا أن يجعلوا

السموات هى الكواكب إنها ليست دائما ما علانا ؛ فالشمس تعلو وقتا وتنخفض وقتاً آخر . وكذلك القمر .

إذن فالوصف منحسر عن الشمس أو القمر بعض الوقت ، ولا يصح أن يوصف أى منهما بأنه سماء دائما . وشىء آخر وهو أنهم حينما قالوا على الكواكب التى كانت معروفة بأنها كواكب سبعة وقالوا : إن هذه هى السماء ، إنهم بقولهم هذا قد وقعوا فى خطأ . وأوضح الحق لنا بالعلم أن للشمس توابع أخرى . فمرة رأى العلماء ثمانية توابع ، ومرة تسعة ، وأخرى عشرة توابع ، وهكذا انهدمت فكرة أن التوابع هى السماء ، وبقيت السماء هى ما فوق هذا كله ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الصافات)

هذه ـ إذن ـ زينة للسماء الدنيا ، والسماء التى يقصدها ربنا ليست هى التى يقولون عليها ، بل السماء خلق آخر لا يمكن لأحد أن يصل إليه ، وكان الجن قديماً يقعدون منها مقاعد للسمع « فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا » . وحدث هذا بعد بعثته ﷺ والحق هو من قال لنا ذلك . ولم يوضح الحق لنا حقيقة هذه السماء ونظامها ، أى أن ربنا يريد لعقولنا أن تفهم هذا القدر فحسب ، وسبحانه خالق السماء التى فوقنا ، وهو جل وعلا خالق أراضين . وأين هى هذه الأراضين ؟ . . أهى أراضين مبعثرة ؟

ولقد أثبت العلم أن كل مجرّة من المجرّات فيها مليون مجموعة شمسية ، وكل مجموعة شمسية فيها أرض ، إذن فهناك أراضٍ عديدة ، ونلحظ أن الحق سبحانه حين يتكلم عن الأرض فكل مخاطب بالأرض التى هو فيها ، ولذلك قال بعض العلماء : إن فى هذا العالم العالى توجد أراضٍ ، وكل أرض أرسل لهم الحق رسولاً .
والحق هو القائل :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ويعطينا العلم كل يوم مزيداً من الاكتشافات . وهكذا تكون السماء هى كل ما علاك والأرض كل ما أقلك . ومادامت سبع سموات ، والسماء الأولى فراغ كبير وفضاء ، وتأتى بعدها السماء الثانية تُظل السماء الأولى ، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى . ونحن غير مكلفين بهذا ، نحن مكلفون بأن نعلم أن الأرض التى نحن عليها مخلوقة لله . والحق يقول :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

وقوله: « فى ستة أيام » هو ظرف للخلق . واليوم نعرف أنه المدة من طلوع الشمس إلى الغروب ثم إلى الشروق ومدته أربع وعشرون ساعة . لكن لابد لنا أن نعرف بعضاً من اصطلاحات الحق القرآنية .

فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة سبأ)

أى هناك ليل وهناك يوم ، إذن فاليوم عند الحق غير اليوم عندنا ؛ لأننا نطلق اليوم على المدة الزمنية من طلوع الشمس إلى غروبها وشروقها من جديد . هكذا يكون اليوم فى العرف الفلكى : من شروق إلى شروق ، أو من غروب إلى غروب ، وقول الحق : (سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين) .

يعنى أنه سبحانه قد جعل الليل قسماً والنهار قسماً ، وهل كان هناك من عرف اليوم إلا بعد أن وجدت الشمس ؟ . . وإذا كانت الشمس هى التى تحدد لنا اليوم فكيف عُرف اليوم قبلها وخصوصاً أن السماء والأرض حينما خُلقتا لم تكن هناك شمس أو كواكب ؟ . . وعلينا هنا أن نعرف أن هذا هو تقديره سبحانه وقد خاطبنا به بعد أن خلقه ، وخاطبنا به بعد أن عرفنا مدة اليوم . ألم تقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة مريم)

وليس فى الآخرة بكرة ولا عشى ، إذن سبحانه قد قدر البكرة وقدر العشى ، وكذلك

« فى ستة أيام » وتلك هى الآيات المحكمات فى القرآن بالنسبة لزمن الخلق ؛ ستة أيام ، ولكن آية التفصيل للخلق ، جاءت فى ظاهر الأمر أنّها ثمانية أيام . اقرأ معى :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾

(الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ومن الآية ١٢ سورة فصلت)

والظاهر من آية التفصيل أنها ثمانية أيام ، أما آيات الإجمال فكلها تقول : إنها ستة أيام ، ومن هذه النقطة دخل المستشرقون ، وادعوا زوراً أن القرآن فيه اختلاف ، وحاولوا أن يجعلوها ضجة عالية . ونقول : إنه ـ سبحانه ـ خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان ، فالمراد أن ذلك حصل وتم فى تتمة أربعة أيام ويضم إليها خلق السموات فى يومين فيكون عدد الأيام التى تم فيها خلق السموات والأرض ستة أيام أو نحمل المفصل على المجمل ، فحين يقول الحق :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

فهل خلق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب الزمن الممتد ؟ . . إن ربنا يخلق بـ « كن » ، ونحن البشر نعالج على حسب قدرتنا لنخلق شيئاً ، وكل عملية نقوم بها تأخذ زمناً ، لكن من يخلق بكلمة « كن » فالأمر بالنسبة له هين جداً ـ سبحانه وتعالى ـ لكن لماذا جاء بخبر الخلق فى ستة أيام ؟

نعلم أن هناك فرقاً بين ميلاد الشىء وبين تهيئته للميلاد . وكنا قد ضربنا المثل سابقا ـ ولله المثل الأعلى ـ بصانع الزبادى ، الذى يأتى بأكواب اللبن الدافىء ، ثم يضع فى

كل منها جزءاً من خميرة الزبادى ، ويضع تلك الأكواب فى الجو المناسب . فهل يؤدى هذا الرجل عملاً لمدة أثنتى عشرة ساعة فى كل كوب ، وهى المدة اللازمة لتخمر الكوب ؟ . . طبعاً لا ، فقد اكتفى بأن وضع فى كل كوب عناصر التخمر لتتفاعل بذاتها إلى أن تنضج .

ولننظر إلى خلق الجنين من تزاوج بويضة وحيوان منوى . ويأخذ الأمر تسعة شهور ، وسبحانه جل وعلا لا يعمل فى خلق الجنين تسعة شهور ، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته .

إذن فخلق الله السموات والأرض فى ستة أيام لا يعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق ، بل قال سبحانه : « كن » وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها ؛ لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام . وفى القرآن آية من الآيات أعطتنا لمحة عن هذه المسألة ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ق)

أى خلق سبحانه السموات والأرض دون تعب ؛ لأنه لا يعالج مسألة الخلق ، بل إنما يحدث ذلك بأمر « كن » فكانت السموات والأرض . والآية التى بعدها فوراً تقول : (فاصبر على ما يقولون) .

وكأن قوله سبحانه هنا جاء لتسلية الرسول ﷺ موضحاً له : إنهم يكذبونك وقد ترغب فى أن نأخذهم أخذ عزيز مقتدر . لكن الحق جعل لكل مسألة كتاباً ، فهو قد خلق السماء والأرض فى ستة أيام . ونحن فى حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدى إن ربنا خلق السماء والأرض فى ستة أيام . فلا تتعجل الأمور .

إذن كان ربنا هو القادر على أن ينجز خلق السماء والأرض فى لحظة ، لكنه أمر « بكن » وترك المواد تتفاعل لستة أيام . ولماذا لا نقول : جاء بكل ذلك ليعلمنا التأنى ، وألا نتعجل الأشياء ؟ لأنه وهو القادر على إبراز السموات والأرض فى لحظة ، خلقها فى ستة أيام ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة ق)

أى لا ترهق نفسك لأنه سبحانه خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وسيأتى لهؤلاء الجاحدين يومهم الذى يؤاخذون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتى حتماً .

وهناك من يتساءل : كيف خلق الكون بما فيه من الرواسي والكائنات ؟ .. ونقول : إنه الإنجاز الذى أخبر به سبحانه مرة واحدة ، وانفعلت الكائنات للقدرة مرة واحدة ، وتعددت استدامة انفعالات السامع لقدرة الله ، فى كل جزئية من جزئيات الفعل ، وأخذ الأمر ستة أيام . واستقر الأمر بعد ذلك واستتب ، وسبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

ولابد أن نعرف العرش ماهو . وسبحانه يقول فى ملكة سبأ :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النمل)

فالعرش إذن هو سرير الملك ؛ لأن الملك لا يجلس على العرش إلا بعد أن تستقر الأمور .

فكأن قوله : « استوى على العرش » كناية عن تمام الأمور ؛ وخلقها وانتهت المسألة . لكن العلماء حين جاءوا فى « استوى » ، اختلفوا فى فهمها ؛ لأن العرش لو كان كرسياً يجلس عليه الله ، لكان فى ذلك تحييز لله ووضعه وضمه فى جرم ما . وسبحانه منزه عن أن يحيزه شىء . ولذلك أخذ العلماء يتلمسون معانى لكلمة « استوى » منهم من قال : إن معناها هو قصد إليها بخلقه واختراعه ، ومنهم من قال : المقصود بها أنه استعلى وارتفع أمره ، ومنهم من قال : « صعد » أمره إلى السماء واستند إلى قوله الحق :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة فصلت)

وكلها معانٍ متقاربة . وجماعة من العلماء أرادوا أن يخرجوا من التشبيهات ؛ فقالوا : المقصود بـ « استوى » أنه استولى على الوجود ، ولذلك رأوا أن وجود العرش والجلوس عليه هو سمة لاستقرار الملك . وحتى لا ندخل فى متاهات التشبيهات ، أو متاهات التعطيل نقول : علينا أن نأخذ كل شىء منسوب إلى الله فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

فحين يقول سبحانه :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الفتح)

ونحن نفهم أن لليد مدلولاً ، والقرآن لغة عربية يخاطبنا بها سبحانه ، فالقول أن لله يداً فهذا دليل على قدرته . واستخدام الحق كلمة اليد هنا كناية عن القدرة . والإنسان عليه أن يأخذ كل شىء منسوب إلى الله مما يوجد مثله فى البشر ، فى إطار « ليس كمثله شىء » ، فنقول : سبحانه له يد ليست كيد البشر ، وله وجود لكنه ليس كوجود البشر ، وله عين ليست كعيون البشر . وله وجه ليس كوجه أحد من البشر . ولذلك حينما سئل سيدنا الإمام مالك عن هذه المسألة قال لمن سأله : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » وأراك رجل سَوْء ! أخرجوه . نعم السؤال عنه بدعة لأنه يدخل بنا فى متاهة التشبيه ومتاهة التعطيل ، وهل سأل أحد من صحابة رسول الله ﷺ عن معنى الاستواء ؟ . . لا ؛ لأنهم فهموا المعنى ، ولم يعلق شىء من معناها فى أذهانهم حتى يسألوا عنها رسول الله ﷺ . إنهم فهموها بفطرتهم التى فطرهم الله عليها فى إطار ما يليق بجلال الله وكماله .

وإن قال قائل : أرسول الله كان يعلم المعنى أم لا يعلم ؟ . . إن كان يعلم لأخبرنا بها ، وإن لم يخبرنا فقد أراد أن يكتمها . وإن لم يكن قد علم الأمر . . فهل تطلب لنفسك أن تعلم ما لم يعلمه ﷺ ؟

أو أنّه ﷺ ترك لكل واحد أن يفهم ما يريد ولكن فى إطار « ليس كمثله شىء » والذين

يمنعون التأويل يقولون : إياك أن تؤول اليد بالقدرة ؛ لأنه إن قال : إن له يداً ، فقل ليست كأيدينا فى إطار « ليس كمثله شىء » ؛ لأنه سبحانه له حياة ، وأنت لك حياة ، أحياته كحياتك ؟ . لا ، فلماذا إذن تجعل يده مثل يدك ؟ . . إذن لابد أن ندخل على كل صفة لله فننفى عنها التعطيل وننفى عنها التشبيه . ثم إن من يمنعون التأويل نقول لكل منهم : أنت ستضطر أخيراً إلى أن تؤول ؛ لأن الحق يقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ومادام « كل شىء هالك إلا وجهه » فكل ما يطلق عليه شىء يهلك ، ويبقى وجهه سبحانه فقط ، فلو أنت قلت الوجه هو هذا الوجه ، فكأن يده تهلك ورجله تهلك وصدره يهلك ، وحاشا لله أن يحدث ذلك . وتكون قد دخلت فى متاهة ما لها من آخر . لذلك نقول : لنأخذ النص وندخله فى إطار « ليس كمثله شىء » . وآية الاستواء على العرش هذه ، مذكورة فى سور كثيرة ، وهى تحديداً فى « سبعة مواضع » ؛ فى سورة الأعراف التى نحن بصددها ، وسورة يونس ، وسورة الرعد ، وسورة طه ، وسورة الفرقان ، وسورة السجدة ، وسورة الحديد .

وهنا يقول الحق بعد الحديث عن الاستواء على العرش : (يغشى الليل النهار) .

الله ـ سبحانه ـ قد خلق السماء والأرض للخليفة فى الأرض وهيأ له فيها أصول الحياة الضرورية ودلّه على ما يحتاج إليه ، فماذا سيفعل هذا الخليفة ؟ . . لابد أن يقوم بكل مقومات الحياة ، وإذا ما عمل فسيبذل جهداً ، والجهد يقتضى راحة . ومن يشتغل ساعة لابد أن يرتاح ساعة ، وإن اشتغل ساعتين ولم يسترح ساعة غُلب على نفسه .

ونحن نرى فى الآلة التى تعمل ثلاث ورديات يومياً أى التى تعمل لمدة الأربع والعشرين ساعة دون توقف أنها تُستهلك أكثر من الآلة التى تعمل ورديتين ، والآلة التى تعمل وردية واحدة أى لمدة ثمانى ساعات يطول عمرها أكثر . وكل إنسان يحتاج إلى الراحة . فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن الليل والنهار متعاقبان من أجل هذا الهدف :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

أى لتسكنوا فى الليل ، وتبتغوا الفضل فى النهار ، فإن كنت لم تسترح بالليل فلن تقدر أن تعمل بالنهار ، فمن ضروريات حركة الخلافة فى الأرض أن يوجد وقت للراحة ووقت للعمل . لذلك أوضح سبحانه لنا : أنا خلقت الليل والنهار ، وجعلت الليل سكناً أى للراحة والبعد عن الحركة ، والحق يقول هنا :

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

ويكون المعنى هنا أن النهار يغشى الليل ، ولذلك تحدثنا من قبل عن تتابع الليل والنهار لنستنبط منها الدليل على أن الأرض كرة .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

والليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، وفى مصر نكون فى نهار مثلا ، ويكون هذا الوقت فى بلد آخر ليلاً ، وإذا سلسلتها إلى أول ليل وإلى أول نهار ، وأيهما الذى كان خلفة للثانى ؟ فلن تجد ؛ لأن كلا الاثنين خلقا معاً . ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة التسطيح وكانت الشمس قد خلقت مواجهة لسطح الأرض لكان النهار قد خلق أولاً ثم يعقبه الليل ، ولو كانت الشمس قد خلقت غير مواجهة للسطح كان الليل سيأتى أولاً ثم تطلع الشمس على السطح ليوجد النهار . والحق سبحانه أراد من الليل والنهار أن يكون كلاهما خلفة للآخرة ، ولايمكن أن يكون ذلك إلا إذا كان الله سبحانه خلق الليل والنهار دفعة واحدة . كان لابد أن تكون الأرض كرة ؛ ليغشى النهار الجزء المواجه للشمس ، وليغشى الليل الجزء غير المواجه للشمس ، وحين تدور الأرض يأتى النهار خلفة لليل ، ويكون الليل خلفة للنهار .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

(يغشى الليل النهار) ويغشى النهار الليل وحذفت للاعتماد على الآيات السابقة التى منها قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

أى أن الليل لا يسبق النهار وكذلك النهار لا يسبق الليل ، وهذا دليل على أنهما خُلقا دفعة واحدة .

والحق يقول هنا : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) .

فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أن يعمل أو لا يعمل ، بل كلها مسخرة ، ولذلك تجد النواميس الكونية التى لا دخل للإنسان فيها ولا لاختياراته دخل فى أمورها تسير بنظام دقيق ، ففى الوقت الفلانى ستأتى الأرض بين الشمس والقمر ، وفى الوقت الفلانى سيقع القمر بين الأرض والشمس ، وسيحدث للشمس كسوف ، وسيحدث للقمر خسوف ، وكل أمر من هذا له حساب دقيق .

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق إيجاد الأشياء من عدم ، فبعد أن خلق الله الكون لم يترك شؤون الكون لأحد ، بل ـ سبحانه ـ له الأمر بعد ذلك . وقيوميته باقية ؛ لأنه لم يزاول سلطانه فى ملكه ساعة الخلق ثم ترك النواميس تعمل ، لا ، فبأمره يُعطل النواميس أحياناً ، ولذلك شاء الحق أن تكون معجزات الأنبياء لتعطيل النواميس ؛ لنفهم أن الكون لا يسير بالطبع أو بالعلة . لذلك يقول : (ألا له الخلق والأمر) .

وإذا نظرت إلى كلمة « الأمر » تجد الحق يقول :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة آل عمران)

والمقصود هو الأمر الكونى ، أمّا الأمور الاختيارية فلله فيها أمر يتمثل فى المنهج ،

وأنت لك فيها أمر إما أن تطيع وإما أن تعصى ، وأنت حر .

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

وحين يقول سبحانه : « تبارك الله » وقال من قبل : « أحسن الخالقين » ، فكل لفظ له معنى ، ففى خلقه من البشر مواهب تَخْلق ولكن من موجود وأوضحنا ذلك .
وفى قول آخر يصف الحق نفسه :

﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأنعام)

والناس تتعلم الحساب وخلقوا آلات حاسبة ، وهى آلات تتم « برمجتها » وإعدادها وتهيئتها للجمع والطرح والضرب والقسمة ، وكل حدث من الحساب يأخذ مدة . لكن الحق يحسب لكل البشر دفعة واحدة . لذلك فهو أسرع الحاسبين ؛ لأنه ليس هناك حساب واحد ، فأنت لك حساب مع الله ، والآخر له حساب مع الله ، والحساب مع الله متعدد بتعدد أفراد المحاسبين ، وحساب الحق للخلق لا يحتاج إلى علاج ، بل ينطبق عليها ما ينطبق على الرزق ، ولذلك حينما سئل علىّ كرم الله وجهه :
— أيحاسب الله خلقه فى وقت واحد ؟

قال : وما العجب فى ذلك ألم يرزقهم فى وقت واحد ؟

وانظر إلى القرآن تجد الحق « أسرع الحاسبين » و « أحسن الخالقين » ، و « أرحم الراحمين » و « خير الوارثين » . وهذه هى الألفاظ التى وردت ، ولله فيها مع خلقه صفة ، لكن صفة الله دائما فى إطار « ليس كمثله شىء » . (تبارك الله رب العالمين) .

و « تبارك الله » أى أنه ـ تعالى ـ تنزّه ؛ لأن هناك فرقاً بين القدرة المطلقة ـ وهى قدرة الله ـ والانفعال للقدرة المطلقة بالإرادة وبـ « كن » وهذا هو الانفعال والانقياد وللإرادة والأمر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥ ﴾

والدعاء إنما يكون من عاجز يدعو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه أو يعينه عليه . وعندما تشعر أنك عاجز فأنت ترتكن إلى من له مطلق القدرة ؛ لأن قدرتك محدودة . إذن فإن كنت تطغى أو تتكبر فاعرف مكانتك ومنزلتك جيداً وتراجع عن ذلك لأنك عرض زائل ، والدعاء هو تضرع ، وذلة ، وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك المدد والعون . واستحضار عجزك وقدرة ربك تمثل لك استدامة اليقين الإيمانى . وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل له ، ويبتكر ويخترع فقد يأخذه الغرور ، فيأتى له بحاجة تعز وتعجز فيها الأسباب ، فيقف ليدعو . ومن كان متكبراً وعنده صلف وغطرسة يذهب إلى رجل « غلبان » زاهد تجرد من الجاه والسلطان منقطع لعبادة الله ويقول له : أستحلفك برسول الله أن تدعو لى لأنى فى أزمة والذى يسأل الغلبان الزاهد هو رجل عزيز فى قومه لكنه يظن أن الغلبان الزاهد أقرب إلى الله منه .

إذن الدعاء هو الضراعة وإظهار الذلة والخشوع لله ؛ لكى يستديم اليقين الإيمانى .

﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

وإياك أن تدعو وفى بالك أن تقضى حاجتك بالدعاء ، عليك بالدعاء فقط لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع ، ولأنك لو لم تدع فستسير أمورك كما قُدر لها ، والدعاء هو إظهار للخشوع ، وإياك أن تفهم أنك تدعو الله ليحقق لك مطالبك ؛ لأنه سبحانه منزه أن يكون موظفاً عندك ، وهناك نظام وضعه سبحانه لتحقيق مطالب العباد . ومن الناس من يطلب بالدعاء أشياء ضارة .

﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ۝١١ ﴾

(سورة الإسراء)

والإنسان قد يتعلق قلبه بأمانى قد تضره ؛ لذلك نقول : لا تتعجل بالدعاء طلباً

لأمنيات قد تكون شراً عليك ، والحق العليم ينظم لنا أمورنا ، وإياك أيضاً أن تيأس حين لا تجاب دعوتك التى فى بالك ؛ لأن الله يحقق الخير لعباده . ولو حقق لك بعضاً مما تدعو فقد يأتى منها الشر ، ويترك الله لأقضيتك أموراً تبين لك هذا ، وتقول : إن الشىء الفلانى الذى كنت أتمناه تحقق وجاء شراً علىّ . مثال ذلك قد تحجز لطائرة لكنك لا تلحق بها فقد أقلعت قبل أن تصل إليها وحزنت لأن بعضاً من مصالحك قد فاتك ولم يتحقق وتفاجأ بأن هذه الطائرة سقطت فى البحر .

إذن ، اجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه لا إجابتك إلى ما تدعو إليه ، إنك دعوت لتطلب الخير ، فدع الحق بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير . واسمع قول الله :

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فحين يقول الحق : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » فسبحانه يطلب منا أن ندعوه لأننا سنواجه لحظات متعددة نعجز فيها عن أشياء ، فبدلاً من أن تظل مقهوراً بصفة العجز عن الشىء اذكر أن لك رباً قويا مقتدراً ، وساعة تذكر ذلك لن تأخذك الأسباب من حظيرة الإيمان . وقلنا من قبل : من له أب لا يحمل هماً للحياة ، فإذا كان الذى له أب لا يحمل هماً لمطلوبات الحياة فمن له رب عليه أن يستحى ويعرف أن ربه سيوفر له الخير ؛ لذلك يوضح سبحانه : إذا أعجزتكم الأسباب فاذكروا أن لكم رباً . وقد طلب منكم أن تدعوه ، ولا تظن أن حظك من الدعاء أن تجاب إلى ما طلبت ، بل ليكن حظك من الدعاء إظهار التذلل والخشوع لله ؛ فقد يكون ما حدث لك نتيجة أنك قد اغتررت بنفسك . وقد سبق « قارون » إلى الغرور ، فماذا حدث له ؟ . . لقد هزمه الحق وأنزل به شرّ العقاب . وقد يجعل الحق من تأبّى الأسباب وامتناعها عليك مغزى لتلتفت إلى الله ، لكن لفتتك لله لا يصح أن تكون بغرض أن يقضى حاجتك ، بل اجعل أساس لفتتك لله أن تظهر العجز أمامه والخضوع والخشوع ؛ ليعطيك ما لم يكن فى بالك حين تدعو .

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

خُفية لها معنى وهو أن يكون الدعاء دعاءً مستوراً مختبئاً ، ولها معنى آخر وهو أن تكون من الخوف أى أدعو ربكم خوفاً من متعلقات صفات الجلال كالجبار والقهار أو خوفا من أن يردها الله عليك فلا يقبلها منك .

ادعوا ربكم تضرعاً بذلة وانكسار وخضوع خفية بينك وبين ربك ، فلا تجهر بالدعاء وتجعله عملك الوحيد لأن النبى صلى الله عليه وسلم علمنا حينما كان فى غزوة غزاها فنزل أصحابه وادياً ، فلما نزلوا الوادى صاحوا بالتهليل والتكبير ، فقال :

(أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، إنكم ليس تدعون أصمَّ ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم)[1].

والدعاء إلى الله خُفية يبتعد بك عن الرياء وهو أستر لك فى مطلوباتك من ربك لأنه حين يوضح لك : ادعنى فى سرِّك لأننى سميع عليم ؛ أعلم كل ما ظهر منك وما بطن ، ادع بالخضوع والخشوع والتذلل لتنكسر فيك شهوة الكبرياء ، وشهوة الغطرسة ، وشهوة الجبروت .

وإذا ما نظرت إلى هذا تجد أن كثيراً من العلماء يقولون :

— نعرف قوماً يقرأون القرآن فى محضرنا وما عرفنا لشفاههم حركة ، وعرفنا قوماً يستنبطون الأحكام من كلام الله وما رأينا منهم انفعالاً يصرفهم عناً . إذن فالمسألة تعبر عن شغل باطنى داخلى .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعدنا عن الرياء ويريد أن يستر علينا مطلوباتنا ؛ لأن الإنسان قد يطلب من الله سبحانه وتعالى ما يستحى أن يسمعه آخر .

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

ولو نظرت إلى هذه الآية لوجدت أن كثيراً من الناس يخالفونها مخالفات جماعية ؛ فى

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ ورواه البخارى ، ومعنى : (اربعوا) ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم .

الليل مثلاً تجد من يصعدون على المآذن أو يصيحون فى مكبرات الصوت التى أغنتهم عن صعود المآذن ، ويكون الواحد من هؤلاء نائما طول النهار لأن رفع الأذان هوعمله ليس غير ، وبعد ذلك يظل يصرخ ويستغيث ويقول : « إن هذه ابتهالات » . بينما من الناس من هو نائم ليأخذ قسطه من الراحة ليؤدى عمله نهاراً ، ولا أحد يطلب من هذا النائم إلا أنه إذا جاء الفجر يستيقظ ويؤدى الصلاة . فلماذا نقلق الناس بهذا ؟ إننا لابد أن ننبه هؤلاء الذين يظنون أنهم يذكرون الناس بدين الله ، إنهم بعملهم هذا لا يسلكون الطريق الصحيح ؛ لأننا لا يمكن أن نذكر الناس بالله ونصنع مخالفة أو نؤذى أحداً ؛ فسبحانه يقول : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) .

والتضرع والخُفية تقتضى ألا أقلق الناس ، أو أن أعلن الأمور التى أريدها لنفسى خاصة بصوت عال مثل من يأتى فى ختام الصلاة ويقول دعاءه بصوت عال وهو رافع يديه ، ولمثل هذا أقول : إن الله سبحانه وتعالى جعل لنا القنوت لندعو فيه ، وترك كل مسلم أن يدعو بما ينفعل له . وأنت حين تدعو فى ختام الصلاة قد يوجد مُصلٍ مسبوق لحق الصلاة بعد أن سبقه الإمام بركعة أو باثنتين أو بثلاث ويريد أن يكمل صلاته ، وأنت حين ترفع صوتك بالدعاء حين تختم صلاتك إنما تفسد عليه إتمام صلاته . وتشغله بمنطوق من عندك وبكلام من عندك عن شىء واجب عليه . ومن يفعل ذلك إنما يفعله عن حسن نية ، لكنه يسىء إلى عبادة آخر .

إذن فلا بد أن نتنبّه إلى أن الله سبحانه وتعالى له مطلوبات ، هذه المطلوبات قد تخالفها النفس لغرض ترى أنه حسن ، لكن خذها فى إطار :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فلا بد أن نتنبه إلى مثل هذه المسائل ، وعلينا أن نوفر الراحة لمن ينام ليقوم ويصلى الصبح ويذهب إلى عمله ؛ لذلك لا داعى أن يفتح إنسان « الميكروفون » ويعلو صوته بالدعاء ، ومن يفعل ذلك يظن أنه يحرص على أمر مطلوب فيزعج النائم ، بل ويزعج من يصلى بالليل أو « يشوش » على من يقرأ القرآن أو يستذكر بعضاً من العلم . إن على من

يفعل ذلك أن يترك كل إنسان لانفعالاته ، وأن يكون ملك نفسه وملك اختياره .
ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صوراً كهذه فيقول :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(الآية ٣ ومن الآية ٤ سورة مريم)

إذن كلمة « خفى » موجودة فى القرآن ، ولابد أن نتنبه إلى الدعاء الخفى .

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

إذن إن لم يكن تضرعاً وخفية فهو اعتداء فى الدعاء ؛ لأنك مكلف والله هو المُكلَف ، وهو يقول لك : ادعونى تضرعاً وخفية . فإن فعلت غير هذا تكن معتدياً ، وعلى كل هؤلاء أن يفهموا أنهم معتدون فإما أن يكون الاعتداء فى أسلوب الطلب وإما أن يكون الاعتداء فى المطلوب .

لأن الحق حدد أسلوب الطلب فأوضح : ادعونى بخفاء ، فإن دعوت فى غير الخفاء تكن معتدياً على منهج الله . وكذلك قد يكون الاعتداء فى المطلوب فلا يصح مثلاً أن تقول : إننى أدعوك يارب أن تجعلنى نبياً . إن ذلك لا يصح وربنا سبحانه وتعالى علمنا فيما سرده عن نوح . فقال :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦ ﴾

(سورة هود)

وهنا نبه الحق نوحاً إلى الاعتداء فى المطلوب فقال الحق :

﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

ولذلك نجد نوحاً يستغفر لأنه سأل ودعا الله هذا الدعاء عن غير علم ، فلما عرف ذنبه استغفر الله وقال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة هود)

وقال له الحق سبحانه :

﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

إذن فالذى لا يسمع منهج الله أو لا يطبقه فى الدعاء يكون معتدياً على الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه لا يحب المعتدين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

الأرض هى مكان الخليفة وهو الإنسان ، وفيها الأسباب الأصيلة لاستبقاء الحياة والسماء والأرض والشمس والهواء كلٌ مسخر لك . ولا تحتاج إلى تكليف فيه ، فلا أنت تقول : « يا شمس أشرقى » أو « يا هواء هب » فكل ذلك مسخر لك . وأنت مطالب ألا تفسد فيما لك فيه اختيار ؛ لأنك لا تستطيع أن تفسد قوانين الكون العليا ، لا تستطيع أن تغير مسار الشمس ولا مسار القمر ولا مسار الريح ، وأنت لن تستطيع إصلاح مالا يمكن أن تقترب من إفساده ، لأن أمره ليس بيدك لأنه لا اختيار لك فيه . وإنما يأتى الإفساد من ملكات الاختيار الموجودة فيك ، ولم يتركنا الله أحراراً فيها ، بل حددها بمنهج يحمى حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا كان سبحانه قد أنزل قرآناً ،

والقرآن فيه منهج يحمى اختيارك إذن فقد أعطاك عناصر الإصلاح ولذلك يقول لك :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

وهنا يعود الحق مرة أخرى للحديث عن الدعاء ، فأولاً جاء بالأمر أن يكون الدعاء تضرعاً وخفية ، وهنا يوضح الحق سبيلاً ثانيا للدعاء : (وادعوه خوفاً وطمعاً) . خوفاً من صفات جبروته وقهره ، وطمعا فى صفات غفرانه ورحمته ؛ لأن لله صفات جمال وصفات جلال ، وادعوه خوفاً من متعلقات صفات الجلال ، وطمعاً فى متعلقات صفات الجمال . أو خوفاً من أن تُرد وطمعاً فيما أنت ترجو .

﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

إذن من الذى يحدد قرب الرحمة منه ؟ إنه الإنسان فإذا أحسن قربت منه الرحمة والزمام فى يد الإنسان ؛ لأن الله لا يفتئت ولا يستبد بأحد.فإن كنت تريد أن تقرب منك رحمة الله فعليك بالإحسان . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

(لا أملّ حتى تملّوا) .

(من حديث قدسى)

وأنت تدخل بيوت الله تصلى فى أى وقت ، وتقف فى أى مكان لتؤدى الصلاة ، إذن فاستحضارك أمام ربك فى يدك أنت ، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقية الأوقات كلها فى يدك ، وتستطيع أن تقف بين يدى الله فى أى لحظة . وسبحانه يقول :

(ومن جاءنى يمشى أتيته هرولة) .

(من حديث قدسى)

وهو جل وعلا يوضح لك : استرح أنت وسآتى لك أنا ؛ لأن الجرى قد يتعبك لكنى لا يعترينى تعب ولا عى ولا عجز . وكأن الحق لا يطلب من العبد إلا أن يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه . إذن فالمسألة كلها فى يدك ، ويقول سبحانه :

(من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه) .

(من حديث قدسى)

وهكذا يؤكد لك سبحانه أن رحمته فى يدك أنت وقد أعطاها لك ، وعندما تسلسلها تجدها تفضلاً من الله ، ولكن فى يدك أنت . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

ونعلم أن فيه صفات لله وفيه ذات ، فالذات (الله) وهو واهب الوجود ، وله كل صفات الكمال وكل صفة لها متعلق ؛ الرحمة لها متعلق ، والبعث له متعلق فمن أسمائه سبحانه « الباعث » ؛ وإياك أن تغيب عن الذات ، اجعل نفسك مسبحاً لذاته العلية دائماً . وقد تقول : يارب أريد أن ترحمنى فى كذا ، وقد لا ينفذ لك ما طلبت ، لكن ذلك لا يجعلك تبتعد عن التسبيح للذات ، لأن عدم تحقيق ما طلبت هو فى مصلحتك وخير لك .

وقد وقف العلماء عند كلمة « قريب » هذه ، وتساءل بعضهم عن سرّ عدم مجىء تاء التأنيث بعد لفظ الجلالة ؟ ونعلم أن القرآن قد نزل بلغة العرب ، وعند العرب ألفاظ يستوى فيها التذكير والتأنيث ، وما يقال للمذكر مثلما يقال للمؤنث ، فنقول : « رجل صبور » ، و« امرأة صبور » ، ولا نقول : صبورة ونقول : « رجل معطار » أى يكثر استخدام العطر ، و« امرأة معطار » أى تكثر استخدام العطر . ونقول : قريب مثلما نقول : قتيل بمعنى مقتول . فيقال : « رجل قتيل » و« امرأة قتيل » ، ولا يقال : « قتيلة » إلا إذا لم يذكر معها كلمة امرأة أو مايدل على التأنيث ، لأن القتيل للذكر وللأنثى .

هذه هى ألفاظ صحيح اللغة . وقد صنعت اللغة ذلك بأسانيد ، فأنت حين تقول : « رجل صبور » أو « امرأة صبور » فالصبر يقتضى الجلد والعزم والشدة ؛ لذلك لا نقول : « امرأة صبورة » بل نأتى بالوصف المناسب للجَلَد والشدة . وإياك أن تضعفها بحكاية التأنيث ، وكذلك « رجل معطار » و« امرأة معطار » ، والرجل المعطار هو من تعرفه الناس من نفاذ رائحة عطره ، والمرأة مبنية على الستر . فإن تعطرت فهى قد تشبهت بالرجل ويقال لها : « امرأة معطار » ، وحين ننظر إلى كلمة « قريب » فهى من صيغة « فعيل » التى يستوى فيها المذكر والمؤنث ؛ بدليل أن الله قال :

﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

(من الآية ٤ سورة التحريم)

والملائكة لفظها لفظ مؤنث ، ولم يقل الحق « ظهيرة » ، لأن « ظهير » يعنى مُعين ، والمعونة تتطلب القوة والعزم والمدد ؛ لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذى يدل على القوة وهو « ظهير » . وكذلك قوله الحق :

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

و « قريب » بوزن « فعيل » بمعنى مفعول ، ولعل بعض الناس يفهم أن « قريب » بمعنى فاعل أى قارب . مثل رحيم وراحم . أى أن رحمة الله هى التى تقرُب من المحسنين ، والأمر ليس كذلك ، فإن الرحمة هى المقروبة ، والإحسان هو الذى يُقرِّبُ إليها فيكون فعيل هنا بمعنى مفعول الذى يستوى فيه المذكر والمؤنث ، أو يكون جاءت كذلك على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم ، أو لأنه صفة لموصوف محذوف أى شىء قريب ، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقى ، أو أن الرحمة مصدر ، وحق المصدر التذكير .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ٥٧

وتصريف الرياح إهاجة للهواء فى الكون ، والإهاجة للهواء فى الكون تأتى منها فوائد كثيرة للغاية ، ونحن حين نجلس فى مكان مكتظ وممتلىء بالأنفاس نقول لمن يجلس بجوار النافذة : « لنهوى الغرفة قليلاً » . وإن لم يكف هواء النافذة تأت بمروحة لنأخذ من طبقات الجو طبقة هواء جديدة فيها أوكسجين كثير . إذن فإرسال الرياح ضرورة حتى

لا يظل الهواء راكداً . ويتلوث الجو بهذا الركود ، ولو أن كل إنسان سيستقر فى مكان مكتوم الهواء لامتلأ المكان بثانى أكسيد الكربون الخارج من تنفسه ، ثم لا يلبث أن يختنق ، ولذلك أراد الله حركة الرياح رحمة عامة مستمرة فى كل شىء ، وهى أيضاً رحمة تتعلق بالقوت كما تعلقت بمقومات الحياة من نَفَس وماء وطعام ، وتصريف الرياح من أجل تجديد الهواء الذى نتنفسه ، وكذلك تكوين الماء . لأنه سبحانه القائل عن الرياح :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

والرياح هى التى تساعد فى تكوين الأمطار التى تنزل على الأرض فتروى التربة التى نحرثها ، وهكذا تكون الرياح بشرى فى ثلاثة أشياء : الشىء الأول تحريك طبقات الهواء وإلا لفسد الجو فى كل جماعة تستقر فى مكان ولاستنشقوا الهواء الفاسد . والعنصر الثانى لمقومات الحياة هو الماء ، لأن الرياح هى التى تحمل السحاب وتحركه وتنزل به مطراً على الأرض ونحرث نحن الأرض ونزرعها . وهو سبحانه قال : « بشرا » ، لأن هناك فرقا بين بشرى ، وبشراً ؛ فالبشرى مفرد ، وقد وردت فى قوله الحق :

﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة هود)

أى التبشير . لكن بشراً جمع بشير وهى كلمة مخففة ، والأصل فيها بُشُر . والحق يقول : ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ .

وجمع البشير « بُشُر » مثل : « نذير » و « نُذُر » ، بضم الشين فسكنت تخفيفا ، فتنطق بُشْراً وبُشُراً . (بشراً بين يدى رحمته) .

هى بين يدى رحمته لأنها ستأتى لنا بالماء ، وهو الرحمة فى ذاته ، وبواسطته يعطينا رى الأرض ، ونحن نرتوى منه مباشرة أيضاً . ونلحظ كلمة الرياح إذا أطلقت بالجمع فهى تأتى للخير ، أما حين يكون فيها شر فيأتى بكلمة « ريح » مفردة ، مثل قوله :

﴿ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحاقة)

فإذن عندما ترى كلمة « رياح » فاعلم أنها خير ، أما كلمة « ريح » فاعلم أنها شر لماذا ؟ أنت إذا كنت قاعداً فى حجرة فيها فتحة نافذة يأتى منها الهواء ، ويتسلط التيار على إنسان ، فالإنسان يصاب بالتعب ؛ لأن الهواء يأتى من مكان واحد ، لكن حين تجلس فى الخلاء ويهب الهواء فأنت لا تتعب ؛ لأن الرياح متعددة . ولكن الريح تأتى كالصاروخ .

الرياح إذن يرسلها الحق بين يدى رحمته ؛ حتى إذا أقلت أى حملت يقال : « أقل فلان الحمل » أى رفعه من على الأرض وحمله لأنه أقل من طاقته ، لأنه لو كان أكثر من طاقته لما استطاع أن يرفعه عن الأرض ، وما دام قد أقله فالحمل أقل بالنسبة لطاقته وبالنسبة لجهده ، أقلت أى حملت ، وما دامت قد حملت فجهدها فوق ما حملته ، وإذا كان الجهد أقل من الذى حملته لابد أن ينزل إلى الأرض . وأقلت سحاباً أى حملت سحاباً . نعرف أن السحاب هو الأبخرة الطالعة والصاعدة من الأرض ثم تتجمع وتصعد إلى طبقات الجو العليا ، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة فيحدث تكثيف للسحاب فينزل المطر ؛ ونرى ذلك فى الماء المقطر الذى يصنعونه فى الصيدلية ؛ فيأتى الصيدلى بموقد وفوقه إناء فيه ماء ويغلى الماء فيخرج البخار ليسير فى الأنابيب التى تمر فى تيار بارد فيتكثف البخار ليصير ماء . (حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت) .

وقال الحق : « سقناه » بضمير المذكر ؛ لأنه نظر إلى السحاب فى اسم جنسه ، أو نظر إلى لفظه ، وجاء بالوصف مجموعاً فقال : « ثقالا » نظراً إلى أن السحاب جمع سحابة فرق بينه وبين واحدة بالتاء ، وما دامت السحب كلها داخلة فى السّوق فليس لها تعددات فكأنها شىء واحد .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

السحاب لا يتجه إلى مكان واحد ، بل يتجه لأماكن متعددة ، إذن فالحق يوجه السحاب الثقال لأكثر من مكان . لكن الحق سبحانه وتعالى يقول : (سقناه لبلد ميت) .

والميت هو الذى لا حراك فيه وانتهى اختياره فى الحركة ، كذلك الأرض ، فالماء

ينزل من السماء على الأرض وهى هامدة ليس بها حركة حياة أى أن الله يرسل السحاب ويزجيه إلى البلد الميت فى أى مكان من الأرض .

﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

إذن فالأرض التى لا يأتيها الماء تظل هامدة أى ليس بها حركة حياة مثل الميت .

﴿ سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا وينبهنا إلى القضية اليومية التى نراها دائما فى صور شتى ، وهى أن الأرض تكون فى بعض الأحيان جدباً ، ثم يهبط عليها بعض المطر ، وبمجرد أن ينزل المطر على الجبل ، وبعد يومين من نزول المطر نجد الجبل فى اليوم الثالث وهو مخضر ، فمن الذى بذر البذرة للنبات هذا اليوم ؟ إذن فالنبات كان ينتظر هذه المياه . وبمجرد أن تنزل المياه يخرج النبات دون أن يبذر أحد بذوراً ، وهذا دليل على أن كل منطقة فى الأرض فيها مقومات الحياة .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

فالماء الذى ينزل على الأرض الميتة يحيى الأرض ؛ لأنه سبحانه يخرج الحياة كل يوم ، وحين يوضح لنا سبحانه أنه سيبعثنا من جديد فليس فى هذا أمر عجيب ، وهكذا جعل الله القضية الكونية مرئية وواضحة لكل واحد ولا يستطيع أحد أن يكابر ويعاند فيها ؛ لأنها أمر حسىّ مشاهد ، ومنها نستنبط صدق القضية وصدق الرب .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى

خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

إذن الآية السابقة عالجت قضية البعث بضرب المثل بالآية الكونية الموجودة ؛ فالرياح التى تحمل السحاب ، والسحاب يساق إلى بلد ميت وينزل منه الماء فيخرج به الزرع . والأرض كانت ميتة ويحييها الله بالمطر وهكذا الإخراج بالبعث وهذه قضية دينية ، ويأتى فى هذه الآية بقضية دينية أيضا : (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً) .

والبلد الطيب هو البلد الخصب ألذى لا يحتاج إلا إلى المياه فيخرج منه الزرع ، أما الذى خبث ، فمهما نزل عليه الماء فلن يخرج نباته إلاّ بعد عناء ومشقة وهو مع ذلك قليل وعديم النفع . وهنا يخدم الحق قضية دينية مثلما خدم القضية الدينية فى البعث أولاً . وقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة ؛ قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »[1]

إذن فالمنهج ينزل إلى الناس وهم ثلاثة أقسام ؛ قسم يسمع فينفع نفسه وينقل ما عنده إلى الغير فينفع غيره مثل الأرض الخصبة شربت الماء وقبلته ، وأنبتت الزرع ، وقسم يحملون المنهج ويبلغونه للناس ولا يعملون به وينطبق عليهم قوله الحق :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

(١) رواه البخارى ومسلم .

صحيح سينتفع الناس من المنهج ، ولذلك قال الشاعر :

خذ بعلمى ولا تركن إلى عملى واجن الثمار وخل العود للنار

ويقول صلى الله عليه وسلم : (من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة)[1] .

فستر المؤمن على المؤمن مطلوب وستر المؤمن على العالم آكد وأشدّ طلبا ؛ لأن العالم غير معصوم وله فلتات ، وساعة ترى زلته وسقطته لاتُذِعْها لأن الناس سينتفعون بعلمه . فلا تشككهم فيه ، والقسم الثالث هو من لا يشرب الماء ولا يسقيه لغيره أى الذى لا ينتفع هو ، ولا ينفع غيره .

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(الآية ٥٨ سورة الأعراف)

إذن منهج الله مثله مثل المطر تماماً ؛ فالمطر ينزل على الأرض ليرويها وتخرج النبات وهناك أرض أخرى لا تنتفع منه ولكنها تمسكه فينتفع غيره ، وهناك من لا ينتفع ولا ينفع ، فكذلك العلم الذى ينزله الله على لسان رسوله . (والذى خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات) .

قلنا من قبل : إن الآيات تطلق على معانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التى نراها واقعة فى الكون مثل قوله الحق :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وآيات هى آيات القرآن ، والآيات التى تكون هى المعجزات للأنبياء .

﴿ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأعراف)

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما .

الآيات هنا هى الكونية كالماء الذى ينزل ، إنه مثل المنهج . من أخذ به فاز ونجا ، ومن تركه ضل وغوى وكل آيات الله تقتضى أن نشكر الله عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطائعين وعن العاصين فى الدنيا ، وتكلم عن مواقف الآخرة الجزائية فى أصحاب الجنة ، وأصحاب النار والأعراف أراد أن يبين بعد ذلك أن كل دعوة من دعوات الله سبحانه لأهل الأرض لابد أن تلقى عنتاً وتضييقاً ، وتلقى إعراضاً ، وتلقى إيذاء ، إنه ـ سبحانه ـ يريد بذلك أن يعطى المناعة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فيوضح له : لست أنت بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول جاء إلى قومه قوبل بالاضطهاد ، وقوبل بالتكذيب ، وقوبل بالنكران ، وقوبل بالإيذاء ، وإذا كان كل رسول قد أخذ من هذا على قدر مهمته الرسالية زماناً محدوداً ، ومكاناً محصوراً فأنت يا رسول الله أخذت الدنيا كلها زماناً ومكاناً ، فلا بد أن تكون مواجهاً لمصاعب تناسب مهمتك ورسالتك ؛ فأنت فى قمة الرسل ، وستكون الإيذاءات التى تنالك وتصيبك قمة فى الإيذاء ، فلست بدعاً من الرسل ، فوطِّن نفسك على ذلك . وحين توطن نفسك على ذلك ستلقى كل إيذاء وكل اضطهاد بصبر واحتمال فى الله ، وقص الحق قصص الرسل على رسول الله ، وعبر الله بالهدف من قص القصص بقوله :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فكأن القصص تثبيت لفؤاده صلى الله عليه وسلم ، فكلما أهاجه نكران ، أو كلما أهاجه جحود ، قص عليه الحق ـ سبحانه ـ قصة رسول قوبل بالنكران وقوبل بالجحود ليثبت به فؤاده صلى الله عليه وسلم وفؤاد أتباعه لعلهم يعرفون كل شىء ويوطنون أنفسهم

على هذا العنت ؛ فلم يقل الحق لأتباع محمد : إنكم مقبلون على أمر والأرض مفروشة لكم بالورود ، لا . إنما هى متاعب لتجابهوا شر الشيطان فى الأرض . والقصص له أكثر من هدى يثبت به فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ويبين له أنه ليس بدعاً من الرسل ، ويقوى نفوس أتباعه ، لأنهم حينما يرون أن أهل الحق مع الأنبياء انتصروا ، وهزم الجمع وولىّ الدبر ، وأنهم منصورون دائما فهذا يقوى يقين المؤمنين ، ويكسر من جهة أخرى نفوس الكافرين مثلما قال الحق عن واحد من أكابر قريش . (سنسمه على الخرطوم) .

قال الحق لهم ذلك عن واحد من أكابر قريش وهم لا يقدرون حينئذ أن يدافعوا أو يذودوا عن أنفسهم ، وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة حماية لأنفسهم من بطش هؤلاء الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عمن يحميه ، وينزل قوله الحق بعد ذلك فى الوليد بن المغيرة « سنسمه على الخرطوم » ، والوليد بن المغيرة سيد فى قومه ، ويأتى يوم بدر فيوجد أنفه وقد ضرب وخطم ويتحقق قول الله :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

فمن ـ إذن ـ يحدد ضربة قتال بسيف فى يد مقاتل قبل أن يبدأ القتال ؟ لقد حددها الأعلم بما يكون عليه الأمر .

وأيضا فقصص الرسل إنما جىء بها ليثبت للمعاصرين له أنه تلقى القرآن من الله ؛ لأنه رسول أمىّ ؛ والأمة أمية ، ولم يدّع أحد من خصومه أنه جلس إلى معلم ، أو قرأ كتاباً ، فمن أين جاءته هذه الأخبار إذن ؟

واسمع قول الحق سبحانه وتعالى فى الآيات التى يأتى فيها : « ما كنت » مثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ومثل قوله :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

فمن أين جاءت هذه الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه لم يجلس إلى معلم ولم يقرأ كتاباً ؟ لقد جاءت كلها من الحق سبحانه وتعالى ، وهذا دليل آخر على صدق رسالته .

وقصة سيدنا نوح من القصص التى وردت كثيراً فى القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أن لقطات القصة تنتشر فى بعض السور ، لكن السورة التى سميت بسورة نوح ليس فيها من المواقف التى تعتبر من عيون القصة ، إنها تعالج لقطات أخرى ؛ تعالج إلحاحه فى دعوة قومه ، وأنه ما قصّر فى دعوتهم ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وعلانية ، كلما دعاهم ابتعدوا ، ولم تأت قصة المركب فى سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأت فيها قصته مع ابنه ، بل جاء بها فى سورة هود .

إذن كل لقطة جاءت لوضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح فى سورة « نوح » وقد خلت من عناصر مهمة فى القصة ، وجاءت هذه العناصر فى سورة « هود » أو فى سورة « الأعراف » التى نتناولها الآن بالخواطر الإيمانية .

إذن ، كل قصة من القصص القرآنى تجدها قد جاءت تخدم فكرة ، ومجموعها يعطى كل القصة ؛ لأن الحق حين يورد القصص فهو يأتى بلقطة فى سورة لتخدم موقفاً ، ولقطة أخرى تخدم موقفاً آخر وهكذا . وحين شاء أن يرسل لنا قصة محبوكة تماماً ، جاء بقصة « يوسف » فى سورة يوسف ولم يكررها فى القرآن ، لأنها مستوفية فى سورة يوسف ، اللهم إلا فى آية واحدة :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة غافر)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

١٧٥ قرشا

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم